
بوحمد
للنشر والتوزيع
رواية
ماي إم. فرانكينغ - كاثرين آن بورتر
زواجي الصيني
ترجمة : د. لطيفة الحاج

رواية

زواجي الصيني

ماي إم. فرانكينغ - كاثرين آن بورتر

ترجمة: د. لطيفة الحاج

عنوان الكتاب:
زواجي الصيني
المؤلف:
ماي إم. فرانكينغ – كاثرين آن بورتر

المترجم:
د. لطيفة الحاج
التصنيف العمري:
17+
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-712-62-6
رقم إذن الطباعة:
MC-02-01-2922362

إهداء

إلى أبي وأمي الصينيين،
بكل الامتنان والحب،
من ابنتهم الأمريكية،
أُهدي هذا الكتاب.

1
في أمريكا

رأيت تشان-كينغ ليانغ لأول مرة في صباح يوم الاثنين من شهر أكتوبر. كان ذلك اليوم الأول في الكلية، وكان الأسبوع السابق مليئاً بالإثارة المرتبطة بوصول العديد من الطلاب، إلى بلدة صغيرة تعيش حياة عائلية بسيطة. كل منزل يحتوي على غرفة إضافية شعر مالكه بأن واجب المواطنة يقتضي استضافة طالب. لذلك، عندما رأيت صناديق وحقائب تُنقل إلى الشرفة الأمامية لجارتنا، قلت لأمي: "السيدة جيمس استسلمت"وخرجت مع صديقتي سيليا لحضور المحاضرة الأولى.

بينما كنا نعبر الحرم الجامعي، لاحظنا مجموعة من الأولاد يتجمعون على درجات قاعة الكلية ويتحدثون. التفتت سيليا نحوي وقالت: "هل ترين ذلك الشاب ذا الشعر الأسود، الذي يدير وجهه ويرتدي البدلة الرمادية، مارغريت؟ حسناً، ذلك هو الطالب الصيني الجديد، والجميع يقولون إنه عبقري. تعرف إليه ابن عمي العام الماضي في شيكاغو، حيث كان طالباً في السنة الأولى. يدرس القانون الدولي والعلوم السياسية، تخيلي!".

التفتُ ونظرت باهتمام طفيف إلى الطالب الأجنبي، والذي كانت الشمس تلمع على شعره الأسود. انطباعي الأول كان أنه شاب ضئيل ومبتسم. قلتُ ببعض الفظاظة: "يبدو جيدا"، ومضينا في طريقنا.

كنت طالبة منشغلة، بدأت عامي الأول بحماس، ولم أفكر كثيراً في الشاب الصيني. ولكن بعد يوم أو يومين، اكتشفت أنه صاحب الصناديق والحقائب التي رأيتها على شرفة السيدة جيمس. تشان-كينغ كان جاري.

لم نتعارف بشكل رسمي، وعلى الرغم من أننا كنا ندرس معاً في مواد الألمانية والفرنسية، لم نتبادل كلمة لبعض الوقت. لاحقاً، وجدت نفسي معجبة بقدرته على تعلم لغتين أجنبيتين، من خلال الإنجليزية، وهي لغة ثالثة، وفعل ذلك بشكل ممتاز. في الوقت نفسه، وعلى الرغم من أنني لم أكن أدرك ذلك حينها، كان هو أيضاً معجباً بي لإتقاني هذه المواد، التي كنت أدرسها بجد، لأنني كنت أنوي أن أصبح معلمة لغات.

تطور اهتمامي به تدريجياً، وكان مبنياً على إحساس بالبعد الكامل عنه، وفشل تام في اعتباره إنساناً يشبهنا. كان أول شخص من عرقه أراه في حياتي. ولكن في النهاية، تحدثنا معاً بالصدفة، وبعد ذلك، بدا من غير الضروري رفض المشي معه إلى المحاضرة في أحد الصباحات، حين خرجنا من منازلنا في نفس اللحظة.

افترقنا عند باب قاعة الكلية وتبادلنا إيماءات ودية. كنت منبهرة بشكل إيجابي. لكن اندفاعي نحو صداقته تعرض لرد فعل سريع، بسبب كل ما كان يمثله تشان-كينغ، خاصة عندما نظرت إليه في سياق عرقه وحسب ما كنت أتصوره. لم يكن لدي أي نية لمواصلة علاقتنا. بالطبع، تشان-كينغ لم يكن يعلم شيئاً عن هذا. ولعل سبب ذلك هو أنني كنت أكثر لطفاً معه مما يلزم. أتذكر أنني كنت قلقة من إيذائه ببعض التعليقات غير المدروسة، والتي قد تكشف عن حقيقة مشاعري تجاه الصين. لقد نسيت عرقه وركزت على الفرد. حتى أنني تظاهرت بعدم ملاحظة أنه كان ينتظرني كل صباح عندما أخرج. وكنت أتأخر دائماً وأذهب مسرعة إلى المحاضرات. ومع نهاية الفصل الدراسي الأول، أصبحنا نذهب معا كل يوم وكأنه أمر طبيعي.

كان تشان-كينغ مرحاً وودوداً، يتمتع بفرح صريح، كهبة اختص بها في هذه الحياة. كنت أستمتع بصحبته، حديثه، وروحه الرائعة. كان مرحه محفزاً مستمراً لمزاجي المتقلب والانطوائي والثابت. كنت أدرس وجهه، الذي كان في حالة الهدوء يحمل السكون الشرقي الحقيقي، سكوناً يوحي بصمت داخلي أو تأمل. لكن هذه الحالة كانت نادرة في تلك الأيام، وما أتذكره أكثر هو ضحكته، وعينيه اللامعتين اللتين لم تفوتا أية متعة يمكن الحصول عليها من أحداث اليوم الروتينية.

لفترة من الوقت، كنا مجرد طالبين تقليديين، نسير معاً بهدوء، نتحدث بحماس حول مواضيع تبدو الآن مضحكة في جديتها والحذر في اختيارها. كنا مصممين على أن نكون مهذبين وموضوعيين. كنت في التاسعة عشرة من عمري، وكان تشان-كينغ يكبرني بسنتين.

في النهاية، طلب تشان-كينغ أن يزورنا، وظهر عند الباب في ذلك المساء، محملاً بحزمة كبيرة وغريبة. مجموعة من الكنوز التي اعتقد أنها قد تهمنا. تجمعنا جميعاً حول طاولة المكتبة، حيث نشر مجموعة مذهلة من الحرير المطرز، والعاج وخشب

الصندل المنحوت، وتماثيل صغيرة غريبة من البرونز وخشب الأبنوس. كانت تفوح منها رائحة لذيذة، حارة وحلوة مع لمسة مرارة، مزيج من الزيوت والورنيش وغبار البخور.
كان فخوراً بنصف دزينة من رباطات العنق التي صنعتها له أمه، والتي صممتها بعناية على غرار الرباط الأمريكي الذي أرسله لها كتذكار. "هي تخيط كثيراً، وكل ما تفعله جميل". قال وهو يمسك أحد الرباطات المصنوعة من الحرير بلون النبيذ والمطرزة بخيط ذهبي رفيع.
الكلمات البسيطة، وتشابك الأشياء الغريبة الملقاة على الطاولة، جعلتني في تلك اللحظة أشعر بوجود عالم كامل بيننا. رأيته كغريب، بعيد المنال وغير معروف. أدركت كم هو مقتلع من جذوره ومزروع في عالم آخر. يتحرك في بلد يلزمه أن يصبح شبيهاً به. وأحياناً يصبح الأمر غريباً بشكل فظيع. "كم يجب أن نبدو غريبين بالنسبة لك!"صرحت باندفاع، وأنا أرفع تمثالاً صغيراً سميناً بيدي.
"غريبون؟ ليس على الإطلاق، لكنكم مثيرون للاهتمام في كل شيء. كما ترين، بالنسبة لي، العالم كله واحد"، التقت نظراتنا لثانية. ثم قدم لي علماً صينياً صغيراً مطرزاً. ترددت، وأنا أنظر إلى التنين المتلوي الذي ينفث النار، والمصنوع من الحرير متعدد الألوان. مرة أخرى، اجتاحني التحيز القديم. كنت على وشك الرفض، لكنني رأيت في عينيه تعبيراً متردداً، نصف قلق، مما أثر فيّ. أخذت العلم، حائرة بعض الشيء بسبب ذلك التعبير الذي فاجأني.
أصبح تشان-كينغ زائراً متكرراً في منزلنا في المساء، متوددا إلى أبي وأمي باحترام صيني حقيقي. أحب أن أتذكر تلك الأوقات، عندما كنا نجلس جميعاً حول الطاولة الكبيرة. المصباح المظلل يلقي دائرة واضحة من الضوء على الكتب والأوراق، وبقية الغرفة في ظل لطيف. خلال هذه الأمسيات، أخبرنا تشان-كينغ عن والده، النموذج الصيني النموذجي لعصره وعشيرته، الذي أدرك مبكراً حدود النظرة القومية الضيقة، وخطّط لتعليم أبنائه في الغرب، وكان تشان-كينغ أكبرهم. من حديثه، كوّنت صورة نصفية عن منزله في جنوب الصين. كان منزلاً كبيراً يعيش فيه الإخوة والأقارب والخدم. تحكمه والدته خلال غيابات والده الطويلة، الذي كانت مصالحه التجارية تقوم في ميناء بعيد.
في إحدى المرات، أحضر صورة باهتة لطفل صغير يرتدي ملابس مخملية وحريرية صينية من فترة سابقة. "أنا في سن السادسة". شرح. نظرتُ إلى الصورة طويلاً وقلت متعجبة: "لماذا، سيد لينغ؟ كنت ترتدي، كنت ترتدي، ذيلاً!"
ابتسم، مسروراً من حيرتي. "نعم، كان ذيلاً جميلاً جداً، مربوط بحبل حريري قرمزي. أتذكر كيف كان يلوح في الريح عندما كنت أطير طائرتي الورقية على التلال".
"ارتديت ذيلاً أسود أنت أيضاً، مارغريت. -تدخلت أمي، بعينين لامعتين- أقصر من هذا، وغالباً كان مربوطاً بشريط حريري أحمر".
"أرأيتِ، كان لدينا ذلك على الأقل". قال تشان-كينغ. وألقى ابتسامة ممتنة لأمي. كانت هناك صداقة راسخة بين أمي اللطيفة المتعاطفة وتشان-كينغ، بينما كانت مشاعري تجاهه لا تزال غير مؤكدة. مع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه الأسباب للتعاطف مع تشان-كينغ، شعرت تجاهه أحياناً بشيء يقترب من الكراهية. ضد هذه الحالات من التفكير، تمرد فوراً حس العدالة الشخصية لديّ، وهي سمة ورثتها مباشرة من أصولي الأسكتلندية. كنت حريصةً على ألا أظهر مشاعري، رغم أنني ربما كنت سأفعل ذلك، لو كنت أدركت أن الصداقة كانت تقترب من الحب. وكنت أملك مثالاً عن الصداقة الحقيقية، في فترة ممتعة قُدر لها أن تنتهي مع أيام الكلية.
مع اقتراب نهاية الشتاء، ومع تقدم معرفتنا، انتابتني سلسلة من تلك الانفعالات. أكدتُ لنفسي أن علاقة عابرة كهذه، بالكاد تستحق الوقت الذي كنت أخصصه لها. تذكرت أن تشان-كينغ، رغم كونه رائعاً، فهو ينتمي إلى العرق الصيني. وقررت إنهاء هذه الحلقة بأكملها على الفور. الطريقة التي نفذت بها الخطة كانت غير ضرورية في حدتها. تجنبته بشكل واضح، ذاهبة إلى المحاضرة وعائدة إلى المنزل بطريقة ملتوية، ورفضت رؤيته سواء في المحاضرات أو في الحرم الجامعي.
ثم، في أحد أيام الظهيرة بعد أسبوعين، كان ينتظرني أمام الباب الرئيسي لقاعة الكلية. لم أتحدث. انضم إليّ دون كلمة وسار بصمت إلى حافة الحرم الجامعي. التفتُ فجأة نحو شارع جانبي. ثم قلت بفظاظة: "اذهب من هناك إذا أردت، لدي

مهمة من هذا الطريق".
سار معي وقال بنبرة غريبة ومتحفظة: "أريد التحدث معك". التقت نظراتنا، ورأيت في عينيه عزماً لطيفاً ينبع من الفهم والرغبة في التفاهم، والذي كان ليكون أكثر أهمية، لو لم أكن منغمسة في مشاعري الخاصة.
"لماذا تريدين إنهاء صداقتنا؟"سأل بهدوء، بصراحته المميزة.
"لأنني اعتقدت أنه الأفضل". تلعثمت، وقد نزعت سلاحي تماماً.
"ليس من الأفضل أبداً التخلي عن صداقة، لكن يحدث أن صداقتنا قد تنتهي قريباً على أي حال. من المحتمل أن أعود إلى الصين. اليوم تلقيت برقية من والدي تقول إن أمي مريضة جداً. سأعرف خلال يوم أو يومين ما إذا كنت سأذهب أو أبقى".
انتصرت المشاعر الإنسانية على التحيز العرقي.
"تعال إلى المنزل معي، ودع أمي تتحدث معك. هي دائماً تعرف ما تقول".
برقية أخرى بعد يومين جلبت الأخبار الجيدة عن تحسن حالة أمه. أثار قلق تشان-كينغ خلال هذين اليومين شفقتي. لم يقل شيئاً، لكن وجهه كان متوتراً ومتجعداً. مشينا وتحدثنا كثيراً عن أشياء أخرى، وأعطاني خطوطاً عريضة لـ "خطة حياته"كما كان يسميها. كان يعتبر الخدمة الدبلوماسية لبلده هدفه النهائي، لكن في الطريق إليه، كان يرغب في المشاركة في العمل التعليمي والاجتماعي البناء في الصين. كان متحمساً بشدة للفنون القديمة والجمال الطبيعي للصين، وكان يجل العديد من عاداتها القديمة. "آمل ألا يدمر التعليم الحديث، جمال الشرق". لكنه كان مقتنعاً تماماً بضرورة الأفكار الجديدة في كل الشرق. بدأت أرى بلاده من خلال عيون جديدة.
سرعان ما بدأنا نقضي وقتاً طويلاً معاً. أتذكر العديد من الحفلات السعيدة في الحرم الجامعي المضاء بالفوانيس، والعديد من الأيام الرياضية ومسابقات التنس، وكل حريات الحياة الجامعية البريئة التي استمتعنا بها معاً. كنت بعيدة نوعاً ما في صداقاتي الشخصية، ولم يُقال لي الكثير عن علاقتي بالطالب الصيني. لكنني الآن بدأت أسمع همسات صغيرة، ضجة غامضة من النقاش، وألاحظ مراقبة الطلاب وأهل البلدة لنا باهتمام. لم أستطع إلا أن ألاحظ النظرات الفضولية التي تتبعنا عندما كنا ندخل معاً غرفة الشاي أو قاعة الحفلات.
تحدثت عدة صديقات لأمي باستياء عن الأمر. "ماذا لو وقعا في الحب، وتزوجا؟"سألت سيدة عجوز ذات تفكير تقليدي. لكن أمي ولدت بدون تحيزات ولا ترى حدوداً أو قوميات. كانت لطيفة وحكيمة بلا حدود. أعلم الآن أنها كانت قلقة بعض الشيء، لأنها شعرت أن الزواج علاقة صعبة بما فيه الكفاية، عندما يعرف كل شخص تراث الآخر وقواعده. لكنها لم تقل شيئاً يجعلني أشعر بالوعي الذاتي، ولم تكرر حتى تعليقات معارفها إلا بعد وقت طويل.
مع ذلك، سمعت تعليقات من مصادر أخرى، أزعجتني قليلاً وكان لها التأثير الطبيعي تماماً في تحفيز ولائي لـ تشان-كينغ وإثارة رقة فيّ أحياناً لحمايته من الظلم. في هذا الوقت، عبّرنا عن آرائنا بشكل مبدئي حول الزواج المختلط. كنا نجلس في الشرفة في وقت متأخر من بعد الظهر. "أعتقد أن الزواج بين الأعراق المختلفة خطأ". قلت بطريقة حاسمة كنت أتبناها في ذلك الوقت. "من الأفضل أن يتزوج المرء من نفس نوعه".
"بلا شك هناك صعوبات أقل". أجاب بدون اقتناع. "كل هذا تحكمه مشاكل شخصية. الزيجات بين الأمريكيين لا تبدو دائماً ناجحة".
اشتعلت غضباً. "نسمع فقط عن الزيجات غير السعيدة".
"لكن هناك الكثير، الكثير من الزيجات غير السعيدة إذن". رد بلطف. "أتساءل ما إذا كانت الزيجات غير السعيدة في كل الدول، ليست بسبب الأنانية ونقص الحب وعدم الرغبة في التنازل عن الاختلافات غير المهمة".
لم يكن ممكناً أن نتشاجر، واستمر حديثنا بود.
أفكاري أثناء العشاء في تلك الليلة، تبدو مضحكة جداً لي الآن عندما أتذكرها. كان تشان-كينغ يشبهنا جداً، بينما كنا نجلس معاً على المائدة. لدرجة أنني وجدت نفسي أتساءل إذا كان صحيحاً أن الزوجة الصينية لا تأكل على نفس المائدة

مع زوجها. إذا كانت تخدمه وتطيعه بدون سؤال في كل شيء. إذا كان تشان-كينغ سيعود إلى الصين قريباً ويصبح زوجاً شرقياً مستبداً لا يُطاق. الفكرة قهرتني بشكل لا يُحتمل. وبما أن تشان-كينغ كان سيغادر في اليوم التالي في رحلة عطلة الصيف، كان هذا عشاء الوداع. أصر على مساعدتي في غسل الأطباق بعد ذلك، لأن منزلنا كان بسيطاً، ولم يكن لدينا خادمة. كنا سعداء جداً أثناء القيام بالمهمة. "في الصين"، أسر لي، بينما كان يرص الصحون، "حياة النساء أسهل بكثير. لديهن خدم لكل عمل من هذا النوع. أعرف امرأة إنجليزية تزوجت صينياً، وبعد ذلك درست في الكلية من أجل أن يكون لديها شيء تفعله".

"لقد فعلت الشيء الصحيح، الفراغ ليس جيداً لأي أحد".

"الزوجات الصينيات لسن عاطلات، لديهن واجبات كثيرة لكل فرد في المنزل".

عند هذه النقطة، التفت نحوي بنظرة مركزة وداخلية. لأنني تأثرت، واخترت أن أكون مستهترة.

"إن كنت أعيق رؤيتك، سأتحرك".

"لن يفيد ذلك، أنت دائماً هناك، أينما أريد أن أنظر".

في وقت لاحق، كان يكتب اسمه بالأحرف الصينية على صورة كان قد أعطاها لأمي. وقفت بجانبه. فأسقط القلم، التفت نحوي وأمسك بكلتا يديّ. انحنى نحوي، وابتعدت، ثم هززت رأسي بقوة. حررت إحدى يديّ، والقبلة التي قصدها لشفتي وصلت إلى أصابعي بدلاً من ذلك. شعرت بالإرهاق من إحساس بالاقتحام. تشاجرنا، لكن بدون مرارة أو غضب حقيقي. كنت ببساطة مقتنعة أنه، بما أن الحب ليس لنا، فنحن ملتزمان بكل الأخلاقيات للحفاظ على علاقتنا في مظهر الصداقة. للحظة، شعرت أن أحد قدواتي قد تحطم بعنف.

"أوه، لكنك أخطأت فهمي". أعلن بجدية، رافضاً أن يحرر يدي.

"القبلات ليست للصداقة".

"أنا آسف". اعترف، لكنني رأيت في عينيه أنه ندم على سوء فهمي له، لا أكثر.

خلال رحلاته الصيفية، كتب لي العديد من الرسائل. كان لدي وقت لأفكر، وفي أفكاري اعترفت أن كوني صديقة تشان-كينغ كان أفضل من أن أحصل على حب أي شخص آخر في العالم.

عندما عاد، تجولنا معاً في أحد الأمسيات إلى الحرم الجامعي وجلسنا على مقعد حجري، في ظل شجرة طويلة تحت ضوء القمر. كنت قد سمعت تعليقاً، ملوثاً بالتحيز العرقي، الذي أيقظ مرة أخرى في قلبي تلك الرقة الأمومية المتأملة، وعندما توسلت عينا تشان-كينغ بحنين، أعطيته، كتضحية، القبلة التي رفضتها من قبل.

في ذلك الخريف، انتقل لمدة عام إلى جامعة في نيو إنجلاند. أخبرني بعد ذلك بوقت طويل، أنه فعل ذلك حتى أتعلم من الغياب معرفة قلبي. كنت أحبه حينها واعترفت بذلك لنفسي بصراحة مريرة. لكن كل تحقيق للحب بدا ميؤوساً منه وبعيداً، والفجوة الثابتة بين أعراقنا بدت غير قابلة للعبور. لدرجة أنني استسلمت في داخلي وأبعدت رسائله عندما كانت تأتي، مبتسمة بتشاؤم شبابي متكلف عند تذكر تلك القبلة. التي لا يمكن أن تعني لنا أكثر من ذكرى حلوة ومقلقة.

عاد بشكل غير متوقع في نهاية الفصل الدراسي. كانت هنالك نظرة لا توصف من الأمل والقلق في عينيه عندما أمسك بيدي. أول نظرة لوجهه، الذي أصبح أكبر سناً وأكثر جدية في تلك الأشهر الطويلة، جلبت صدمة من السعادة المؤلمة، وكانت قريبة جداً من الدموع. بدون حذر، التقينا كعشاق، مع كل العداوات التي اجتاحتها اللحظة، وكل التظاهرات التي نُسيت. ذهبت إلى أحضانه كملاذي الوحيد المؤكد. في تلك الساعة، جعل الحب كل شيء بسيطاً وسعيداً.

كان والداي مندهشين عندما أخبرناهما عن نيتنا في الزواج. بحكمة لطيفة، اقترحت أمي أن نمنح أنفسنا عاماً من الخطوبة، "لنتأكد". كنا متأكدين جداً، لكننا وافقنا.

كتب تشان-كينغ على الفور إلى أهله في جنوب الصين، يخبرهم عن خطوبته. بالنسبة لي، كان لديه تفسير مهم واحد، قدمه بطريقته الصريحة والمباشرة.

"في الصين، من المعتاد أن يرتب الآباء زواج أبنائهم، غالباً قبل سنوات. عندما كنت صغيراً جداً، كان من المفهوم بشكل

عام أنني سأتزوج لاحقاً ابنة صديق والدي، التي تصغرني بثلاث سنوات. لم يكن هناك خطوبة رسمية، وعندما غادرت المنزل للدراسة، طلبت من والدي ألا يقوم بأي ترتيبات محددة لزواجي حتى أعود. لم يتم ذكر الموضوع منذ ذلك الحين، ولا أعرف ما هي أفكاره الآن. لكنها لا يمكن أن تؤثر علينا، أتفهمين ذلك، مارغريت، عزيزتي؟". مرة أخرى، شعرت بأنني في تصادم روحي مع قوى مجهولة، وتساءلت عن هدوئه في معارضة مطالب وراثته.

ردت عائلته على رسالته ببرقية، تمنع الزواج. لم أكن أتوقع أي قرار آخر، تبعتها رسالة، كانت متسامحة في نبرتها، شرح فيها والده أنه، بما أن تعليم تشان-كينغ الأجنبي كان على وشك الانتهاء، فقد تم ترتيب زواجه من الآنسة لي-ينغ فور عودته إلى المنزل. وصف بطريقة ساحرة عروسه، التي لم يرها تشان-كينغ منذ اثني عشر عاماً. قال إنها كانت شابة ومتواضعة وطيبة، وكانت جميلة وثرية، وعلاوة على ذلك، تلقت تعليماً حديثاً لتناسب مكانة زوجة صيني متقدم. كان الارتباط مرغوباً جداً من قبل العائلتين. في الختام، طلبت الرسالة بشكل ملح، ألا يصعّب تشان-كينغ على والده الوفاء بالعقد الذي أبرمه مع صديقه، وألمحت بلطف إلى أنه بفعله ذلك سيفقد كل حق في المزيد من الاعتبار.

جاءت رسائل أخرى. كتب صديق أمريكي، مبشر -بأسلوب لطيف جداً- عن الصعوبات التي سيواجهها في إسعاد زوجة أمريكية في الشرق. ناقش قريب صيني مطولاً الأحزان التي ستجلبها زوجة أجنبية إلى منزله، مرارة وجود امرأة غريبة وعنيدة في العائلة، التي لن تكون راغبة في إعطاء والديه الشرف الذي يستحقانه أو تقديم الخدمة التي يتوقعانها من زوجة ابنهم.

جاءت العديد من الرسائل من هذا النوع في مجموعة. وكانت هنالك نبرة ميؤوس منها من الحتمية، ووعي عائلي قوي في تلك الرسائل التي أخافتني قليلاً. كنت قلقة، غير متأكدة. ولم أجد عناصر غير قابلة للتوفيق في عقولنا، لأنني كنت محافظة جداً من الغرب، وكان هو ليبرالياً جداً من الشرق. لكن كان هنالك ممثلون عن الأشخاص الذين يجب أن يقضي حياته معهم والخلفية الاجتماعية التي يجب أن يتطور بشكل متناغم معها. انتابني شعور قوي بأن الأمر لم يكن تشان-كينغ، بل تقاليد تشان-كينغ وأسلافه، ماضيه العرقي الهائل، الذي يجب أن أحسب حسابه.

أيضاً، لم أكن أرغب في الوقوف في طريق مستقبله. وبدأت أشك فيما إذا كنت سأجد الشجاعة للزواج من تشان-كينغ، وما إذا كنت قد أدركت في ذلك الوقت أهمية تأثير العشيرة والعائلة في الصين خاصة في الأوساط الدبلوماسية والسياسية. لكنه تخلى عنها بحرية، بمرح واثق وبدون ندم، لدرجة أنني لم أستطع إلا أن أشاركه مزاجه.

في هذه الرسائل العائلية الهادئة والمنطقية وغير الشخصية، التي ترجمها تشان-كينغ لي، كان هناك تيار من الفلسفة الشريرة التي جعلتني أشعر بالبرد عندما قرأتها. تناولت الرسائل بالكامل واجبه في العديد من جوانبه تجاه والديه، أسلافه، بلده، مستقبله. لا شيء عن الحب. فقط قريب واحد، ابن عم، أتى على ذكره، وكتب: "أنت شاب الآن، وللشباب يبدو الحب ذا أهمية كبيرة. لكن، عندما يحل العمر محل الشباب، ستجد أن الحب يهرب مثل الماء".

"هذا ليس صحيحاً، تشان-كينغ:. -قلت باقتناع جدي- الحب أعظم من الحياة أو العمر، يعيش بعد الموت. الحب هو الذي يصنع الخلود".

في ذلك الوقت، لم يفهم تشان-كينغ تماماً تفسيري الصوفي للحب. لكنه أجاب بسعادة كبيرة: "أن تكوني زوجتي، أمر يستحق كل ما يمكن أن يقدمه العالم".

استمر تشان-كينغ في الكتابة إلى عائلته باختصار واحترام، رافضاً أن يتأثر بأي شكل. جاءت الردود على فترات متباعدة ثم توقفت. لم يكن هناك خرق صريح، ولا تمزق عنيف للروابط. بأدب، بلطف شديد، أزال أيدي أهله، ووقف وحده.

"لكن بالتأكيد أمك لن تتخلى عنك". صرخت في يوم ما عندما أدركت أنها لم ترسل أي رسالة في كل المراسلات.

"ليس في قلبها العزيز. -قال بإيمان راسخ- لكن بالطبع لن تكتب لي إذا كان والدي يعترض".

"لكنها أم، تشان-كينغ. بالتأكيد مشاعرها تأتي أولاً دائماً".

كانت نبرة تشان-كينغ الصبورة دوماً حين يشرح لي أمراً.

"في الصين، العائلة تأتي دائماً قبل الفرد. لكن معك ومعي، مارغريت الحبيبة، الحب له الأهمية الأولى".

إصراره الذي لا ينضب على اعتبار حالتنا حالة فردية، لا تُحكم بأي معايير عادية، كان مصدر قوة كبيرة لي دائماً. خلال

الفترة القصيرة قبل زواجنا، تشاجرنا عدة مرات بأكثر الطرق تقليدية، مع نوبات من الغيرة التي لم يكن لها أساس. شكوك صغيرة كانت من جانبي، مجرد محاولات لدعم ما اعتبرته فخري الأنثوي الصحيح، ومن جانبه، كانت غالباً إخفاقات في تجاهل هذا الطبع الخاص بي. فقط، بطريقة ما، لم يكن هناك أي ضغينة في مشاجراتنا. لم ننكر حبنا لبعضنا البعض أبداً.
لذلك خططنا للزواج على الفور. لم تكن هناك أسباب لتأخير ذلك أكثر. أي، لا أسباب عملية، وما علاقة الأسباب العملية بالشباب في الحب؟
قال تشان-كينغ بمرح، عندما ناقشنا السبل والوسائل: "من المتأخر قليلاً أن نبدأ بالتفكير العملي، لكن قد نجري التجربة".
لم يعد تشان-كينغ مجرد طالب مع مصروف سخي من والد ثري. فهو وعلى موارده الخاصة، ومع تعليمه غير المكتمل، كان على وشك أن يكتسب زوجة أجنبية ويواجه عالماً غير مجرب. كنا غريبين في كل هذا، وكان تشان-كينغ يدخر بانتظام أكثر من نصف مصروفه منذ قدومه إلى أمريكا. كنت أنوي أن أكون معلمة لغات، مستقلة اقتصادياً إذا تطلبت الظروف مثل هذه المساعدة لرجل يبدأ مسيرته. انتهينا من وضع خططنا، وفي نهاية فصل دراسي آخر، سننهيه معاً، سيتخرج تشان-كينغ. ثم بعد عام من الممارسة في مهنته، سيعود إلى الصين، ليبدأ عمله في الحياة. كنت سأتبعه لاحقاً.
لا شيء كان يمكن أن يكون أكثر بساطة بشكل ساحر بقدر ما نرى. بعد أيام قليلة، تزوجنا في منزل أمي على يد قس أنجليكاني.
"بالطبع ستعيشان هنا معنا حتى تذهبا إلى الصين، -قال والداي- نريد أطفالنا معنا، إذا كنتما تستطيعان أن تكونا سعيدين هنا".
بدا هذا الترتيب طبيعياً جداً لـ تشان-كينغ، المعتاد على الحياة العائلية. لكنني كنت قلقة. الفكرة الغربية الشائعة بأن الناس لا يمكن أن يكونوا أصدقاء، إذا كانوا مرتبطين بالقانون، كانت تثقل على ذهني. لم أكن أتوقع أي إعادة تكيف جذرية في الطباع بين زوجي الصيني وبيني، لكنني كنت أتطلع ببعض الخوف إلى فترة صعبة من التعقيدات الصغيرة، بسبب الاختلافات في العادات المنزلية، وروتين الحياة اليومية.
لم يكن عليّ أن أقلق لحظة، روح التعاون العائلي الرائعة كانت جزءاً مهماً من تراث تشان-كينغ الشرقي. من يوم زفافنا، أخذ مكانه بسهولة وطبيعية ساحرة كعضو في المنزل. المودة التي كانت موجودة بين زوجي ووالديّ جعلت هذه المرحلة من علاقتنا بسيطة تماماً، وتركتنا أحراراً في التكيف مع بعضنا البعض ومع العالم، على الرغم من أننا لم نأخذ العالم في الاعتبار كثيراً. قبل أن ألتقي بـ تشان-كينغ، كانت فكرة أن أكون ملفتة للنظر غير محتملة بالنسبة لي. لكن عندما أدركت مبكراً أن الظهور معه في أي مكان كان يعني استدعاء نظرات الفضوليين، اكتشفت بدهشة أن الأمر لم يكن مهماً على الإطلاق. كنت فخورة جداً بزوجي وأحببت الخروج معه. كنا سعداء منذ البداية.
اكتشاف الحياة معاً كان مغامرة رائعة، تتجدد يومياً. المودة العميقة والرقة بيننا خلقت تفاهمات دقيقة جداً بحيث لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. نظرة سريعة نتبادلها عند التوقف عن الحديث كانت غالباً تنقل فكرة كاملة. كنت دائماً أشعر أن تشان-كينغ كان لديه إدراك أكثر حدة، ومزيد من التحفظ، ومزيد من الخيال مقارنة بي. أيضاً، كان دقيقاً على عكسي فيما يتعلق بالآداب الصغيرة. كنت دائماً معتادة على أن أفعل ما أريد دون أن أسبب إزعاجاً لأي شخص آخر، لكنني وجدت أنني لا أستطيع التحدث بلا مبالاة أو التصرف بلا تفكير دون أن أخاطر بانتهاك إحساسه بملاءمة الأشياء. أكبر صعوبة واجهتها في الأشهر الأولى من زواجنا، جاءت من محاولتي المستمرة لتعديل طريقة تفكيري وتصرفي لتتناسب مع طباع مدربة للغاية وناقدة، لا تقبل الأقل من الأفضل في العلاقات، سواء كانت روحية أو عقلية أو مادية. ومع ذلك، إذا كان يطلب الكثير، فإنه كان يعطي أكثر. في كل شيء، كان لديه كرم صادق وتلقائي أثار بداخلي صفة مماثلة.
كنت في نواحٍ عديدة من النوع الأساسي من النساء، وأعلم أنني أحتاج إلى قدر معين من الهيمنة في الحب. كان من الضروري أن أحترم زوجي، وسررت عندما اكتشفت، في عدة أزمات منزلية بسيطة، أن إرادته كانت الأقوى بكثير. كنت قد أخذت عهدي بالطاعة، بعد أن حددت أن الكلمة لن تُحذف من مراسم الزواج. لا أعرف كيف كنت سأحافظ على هذا العهد تحت إرادة مستبدة، لأن تشان-كينغ لم يكن ديكتاتوراً منزلياً. كان يعتبرنا شركاء ومتساوين في أقسام حياتنا

الخاصة. كان يثق في حكمي في إدارة شؤوني الخاصة، وفي السنوات اللاحقة، كان يأتي إليّ غالباً طلباً للنصيحة في شؤونه الخاصة. ومع ذلك، أخلاقياً، كانت موازين القوة في يده، وكنت سعيدة بتركها هناك. غالباً ما كانت خلافاتنا تنتهي بالضحك، لأن كل واحد منا كان يتنازل تدريجياً عن الموقف الذي اتخذه في البداية، حتى كنا نكاد نتبادل الأدوار في النقاش. حدث هذا مراراً وتكراراً.

منذ البداية، رأيت بوضوح، بفضل نعمة ما، النقطة التي تصطدم فيها عقلية تشان-كينغ الشرقية مع تعليمه الغربي بشكل حاد: موقفي تجاه الرجال الآخرين وموقفهم تجاهي. لم يكن أبداً غيوراً أو مشككاً بشكل حقير، لكن كان لديه ذلك الإحساس الشرقي الذي لا يقهر بالخصوصية في الحب، ذلك التقدير للامتلاك الشخصي، الذي كان غير مفهوم تماماً للخيال الغربي العادي.

كنت قد خططت لتعليم شاب في اللغة الفرنسية خلال أشهر الصيف، كجزء من عملي في العطلة، وأعلنت عن نيتي بشكل عابر لـ تشان-كينغ. عارض ذلك على الفور، واعتقدت أنه كان غير عادل. استغرق مني وقتاً طويلاً لإقناعه بالاعتراف بأسباب حقيقية لمعارضته. أخيراً قلت، بشكل عشوائي: "لو كان تلميذي فتاة، لما كنت ستهتم".

"لديك ما يكفي من العمل كما هو"

أصر، لكن بدون صلابة، وعيناه تبتعدان عن عيني. ضحكت قليلاً. فالتفت نحوي بوجه مليء بالضيق حتى ماتت ابتسامتي فجأة.

"أوه، لا تضحكي. -قال بجدية مؤلمة- يجب أن تضعي في اعتبارك ما تعنينه لي. أنا، لا أستطيع أن أكون مختلفاً. أنا آسف".

تخليت عن تلميذي الشاب البريء ولم أقل شيئاً أكثر. منذ تلك اللحظة، بدأت في تشكيل قواعد سلوكي بالكامل فيما يتعلق بالرجال على أساس رسمي وغير شخصي تماماً. لم يكن الأمر صعباً، لأن عاطفتي الأولى والوحيدة كانت مركزة على زوجي، وكانت نزعة التلاعب غريبة عن طبيعتي.

تصميم زوجي على ترك فرديتي دون قيود كان أحياناً يتغلب عليه، بطرق صغيرة تسرني، وبإحساسه الفطري بملاءمة الأشياء. كنا نلعب التنس وكان يلعب بشكل ممتاز. في أحد الأيام، عندما غادرنا الملاعب، قال لي: "التنس ليس لعبتك، مارغريت. كرامتك دائماً تعترض طريق ضرباتك. لا أريدك أن تتخلّي عن كرامتك، فهي جزء كبير منك. لكنك قد تتركي التنس وتجربي الرماية. أنا متأكد أن ذلك أكثر ملاءمة لك".

الطاعة الممتعة التي أخذت بها اقتراحه سرعان ما تحولت إلى حماس للرياضة الجديدة. بالنسبة لي، كان الزواج دائماً يبدو أكثر العلاقات الإنسانية غموضاً وأهمية، حيث يشمل أحياناً كل العلاقات الأخرى، وخاصة الأبوة. أنا أم بالفطرة، حيث فكرة الزواج بدون أطفال كانت غير قابلة للتصور. منذ أن وضعت دميتي جانباً، أخذ الأطفال الحالمون مكانهم في خلفية خيالي. رأيتهم بشكل غامض في البداية، لكن مع قدوم الحب، عرفت بوضوح كيف سيبدون. الآن بعد أن تزوجت تشان-كينغ، صرت أتمنى أن يكون لدي طفل على الفور، كرابط أقوى بيننا ومصدر راحة لنفسي بينما كان سيبدأ عمله في الصين. كنت أعلم أنه يحب الأطفال، لأنني في عدة مناسبات كنت أضع عمداً طفلاً صغيراً من الجيران في طريقه، ولاحظت ودّه الدافئ ولطفه مع هذا الكائن الصغير. لكن، خوفاً من أنه لن يكون راغباً في قبول مسؤولية جديدة بينما كانت شؤوننا لا تزال غير مستقرة، وضعت رغبتي في طفل جانباً. لم أكن أعلم أن زوجي كان يشارك الاعتقاد الأجنبي الشائع، بأن المرأة الأمريكية غير راغبة في الأمومة.

ثم في يوم من الأيام، ذهب لزيارة صديق له، طالب صيني كانت زوجته وابنه الصغير معه.

"رأيت الطفل الصيني. -قال بحماس صبياني- سيحصل على أخ صغير قريباً. طفل محظوظ".

"والدان محظوظان"صححته له، وتنهدت بحسد. نظر تشان-كينغ إليّ، ودهشته تتحول إلى ابتسامة سعيدة.

"هل تعنين ذلك، مارغريت؟"

ثم تحدثنا مطولاً وبجدية عن أطفالنا. بالنسبة لعقل تشان-كينغ القديم، يجب أن يتبع الأطفال الزواج بشكل طبيعي مثلما

تتبع الثمرة الزهرة، وسعادته في اكتشاف أن فكرتي كانت بالضبط مثل فكرته، جعلتنا نصل إلى مستوى آخر من التفاهم والرضا عن بعضنا البعض. بالإضافة إلى ذلك، قال إن الحفيد سيفعل الكثير، لاسترضاء والديه تجاه زواجنا.
بسعادة، عندما انتهى الفصل الدراسي، وضعت كتبي جانباً وتناولت إبرة. كنت دائماً أحب الخياطة، لكنني لم أجد أبداً عملاً مثيراً للاهتمام مثل صنع تلك الملابس الصغيرة من الحرير والفلانيل واللون. احتجت أمي على الكثير من التطريز، لكن زوجي فقط ابتسم بينما كان يفتش بلطف في سلة الخياطة الصغيرة.
"أنت زوجة صينية حقيقية، بعد كل شيء، الزوجة الصينية تخيط وتطرز كثيراً. إنها تصنع أحذية للعائلة أيضاً".
"أحذية، تشان-كينغ؟"
"أحذية. صنع الأحذية بشكل جميل هو فن رفيع، والمرأة الصينية تفخر بإتقانها له. هي تفخر بقدميها وتصنع كل أحذيتها بنفسها".
ثم يخبرني قصصاً عن طفولته ويسترجع ذكريات الحديقة المغلقة في منزله القديم، حيث كان يلعب الريشة مع فتاة صغيرة، بينما كانت أمها وأمه تجلسان معاً، تطرزان وتتحدثان بصوت منخفض. كانت الأمهات الشابتان صديقتين وكانتا تخططان لزواج ابنهما وابنتهما، مما سيقوي الصداقة إلى رابطة عائلية. أخذت الفتاة الصغيرة جزءاً كبيراً من اهتمامي، التي كانت تظهر في قصص تشان-كينغ مثل فراشة لامعة تُرى من خلال ضباب. اسمها كان لي-ينغ وكانت تبلغ من العمر ثلاث سنوات فقط عندما كانت تجري، بقدميها الصغيرتين، في تلك الحدائق الخضراء من ذكريات طفولته الحلوة. في مكان ما الآن، كانت تجلس، قدماها الزنبقيتان متقاطعتان بتواضع، تطرز أحذية، تنتظر حتى يزوجها والدها لشاب آخر.
عندما أظهر لي تشان-كينغ صورة له، مأخوذة في مجموعة مع أمه وأبيه عندما كان في الثامنة من عمره، فحصت بتمعن وجه المرأة الجميلة التي أنجبته. كانت تجلس على جانب واحد من الطاولات المصنوعة من خشب الأبنوس المنحوت. تنورتها الضيقة المقسّمة كانت مرفوعة قليلاً، لتظهر قدميها الصغيرتين بشكل مدهش. على الجانب الآخر من الطاولة كان يجلس والد تشان-كينغ، رجل صارم ومستبد المظهر، يرتدي ملابس قديمة بشكل فاخر. بجانبه كان يقف صبي صغير وجاد، يرتدي قبعة مستديرة، وكانت ضفيرته لا تزال مربوطة، كما أخبرني، بحبل أحمر، ويداه مختفيتان في الأكمام الطويلة من المخمل التي وصلت تقريباً إلى ركبتيه. وضعت إصبعي على رأس هذا الصبي.
"آمل أن يبدو ابننا مثله بالضبط" قلت.
أخيراً، وُلد الابن المأمول ووُضع بين ذراعي. كان ملفوفاً ومرشوشاً بالبودرة، وكان يبكي لأسباب غامضة. لكن زوجي وأنا ابتسمنا بفرح عند التشابه اللذيذ وغير المعقول لذلك الوجه الصغير مع وجهه. نظر إليه تشان-كينغ لفترة طويلة، بابتسامة ساخرة وسعيدة في زوايا فمه. ثم قبلني بلطف شديد وقال: "إنه طفل لـ يانغ حقيقي، مارغريت. هل أنت سعيدة؟"
أجبت أنني سعيدة، كما كنت بكل شيء جلبه الحب لي.
تقدمت خططنا بشكل إيجابي، وعندما أصبح ابننا ويلفريد في الخامسة من عمره، عاد تشان-كينغ إلى الصين. ودعته بالطريقة التي كنت أعلم أنها ستسعده أكثر، بهدوء وبدون دموع. لكن، عندما جاءت اللحظة الأخيرة، شعرت بعدم القدرة على تركه. تعلقت به بصمت، والطفل على ذراعي بيننا.
"لن يكون لفترة طويلة. -طمأنني- سنكون جميعاً معاً في المنزل قريباً جداً. أنت شجاعة وعزيزة وصادقة، مارغريت. لن تحزني أبداً. كوني صبورة".
أخبرتني رسائله الأولى عن عمله الجديد في إحدى الكليات القديمة التي تشتهر بها شنغهاي. كما بدأ ممارسة القانون بشكل رسمي. كانت خطوته الأولى نحو الخدمة الدبلوماسية قد اتُخذت. بعد مرور أربعة أشهر، تلقيت استدعاءه وبدأت في الاستعداد للرحلة إلى الصين مع ابني الصغير. مهمة حياتي كانت مساعدة زوجي في إنشاء منزل. مهمة حياته كانت في الصين. الاستنتاج كان واضحاً لدرجة أنني ووالديّ لم نتساءل عنه أبداً. لكن، الآن بعد أن حانت اللحظة، كان أصدقاء العائلة متحمسين جداً. طرحوا أسئلة غريبة: هل ستذهبين حقاً؟ كيف يمكنكِ ترك أمك؟ كيف يمكنكِ التخلي عن أمريكا الجميلة؟ ألستِ خائفة من الذهاب إلى الصين؟

أجبتُ بأكبر قدر ممكن من الصبر والمنطق. لقد أتعبوني كثيراً.
بالنسبة للصين نفسها، لم يكن لدي تصور واضح، على الرغم من رسائل تشان-كينغ، لأنه على الرغم من أن تحيزي القديم قد زال، إلا أنني كنت لا أرى البلاد إلا كخلفية لوجه زوجي. اتبعتُ تعليمات تشان-كينغ الدقيقة فيما يتعلق بترتيبات السفر، وكانت رحلتي مع ويلفريد ممتعة. في صباح أحد الأيام، نظرت من خلال فتحة الباب ورأيت حولي مياه اليانغتسي العكرة، تعج بالقوارب المحلية، بينما بدت تحصينات ووسونغ بشكل غامض من خلال الضباب. كان القارب الصغير ينتظر بالفعل، وسرعان ما كنا على متنه، نتحرك بسرعة نحو مصب النهر. اختفى الضباب، وظهرت ضفاف خضراء على كلا الجانبين، ومن خلال الأشجار البعيدة لمعت مباني الطوب الأحمر مثل أي شيء في الوطن، جنباً إلى جنب مع الجدران المطلية باللون الأبيض والأسقف المائلة للصين. في تلك الرحلة الطويلة، نمت شانغهاي فوقي تدريجياً، مزيج غريب من المألوف وغير المألوف، مما أثار فيّ شعوراً بأنني رأيت كل هذا من قبل ويجب أن أتذكره بشكل أفضل. في المياه حولي، اختلطت السفن البخارية والقوارب الصغيرة والسفن الحربية مع القوارب المحلية، والزوارق النهرية والقوارب المنزلية. فجأة، في مجموعة الانتظار على رصيف الجمارك، رأيت زوجي. في لحظة أخرى، كنا قد اقتربنا من الرصيف وكان بجانبي في القارب الصغير، يحييني بأسلوب مهذب رسمي اعتبره مناسباً للمناسبات العامة. أخذ ويلفريد بين ذراعيه، وسحبني لأعلى الدرجات نحو عربة تنتظرنا.
هنا مرة أخرى كان الاختلاط المحير بين الغريب والمألوف: ترامات تصدر أصواتاً صاخبة، سيارات تصفر، عربات الريكشا التي تتدحرج بسلاسة، عربات يدوية تصدر أصواتاً صريرية، وشاحنات ضخمة تجرها الخيول. وجوه عمال مظلمة تحت قبعات قش عريضة، ملامح مهذبة تحت خوذات بيضاء، وجوه سوداء ملتحية تحت عمائم كبيرة ملونة. خليط محير من الكلام الأجنبي والإنجليزي.
حتى في تشان-كينغ وجدت ذلك. كان يرتدي ملابس أمريكية، وجهه لم يتغير، نبرات صوته كانت كما هي، لكنه كان يتحدث الصينية، وتوجيهاته إلى السائق كانت بالنسبة لي سلسلة من الأصوات التي لا معنى لها.
لكن، عندما كان بجانبي في العربة وبدأت الخيول بالتحرك، التفت فجأة وابتسم مباشرة في عيني. عندها، كانت شانغهاي، بورنيو أو القطب الشمالي، كلها كانت واحدة بالنسبة لي. لم أطرح أي أسئلة، كنت مع زوجي وطفلي، نتحرك بسرعة نحو المنزل الذي أُعد لي. كنت قد وصلت إلى الصين.

2
في شانغهاي

انطباعاتي الأولى عن شانغهاي كانت ضبابية. قاد زوجي السيارة بسرعة على طول الواجهة البحرية (البوند)، وعبرنا جاردن بريدج، الذي كان يمكن أن يكون أي جسر في أمريكا، مررنا بفندق أستور هاوس، الذي كان يشبه إلى حد كبير أي فندق أمريكي، ثم تابعنا السير على طول نهر سوتشو كريك، الذي كان يمكن أن يكون فقط في الصين.

على طريق شمال سيتشوان توقفنا عند "لي"، منزل بشرفة من المنازل المشيدة حديثاً على الطراز شبه الأجنبي. في المنطقة الدولية، مشرقاً ونظيفاً، ويطل على الشارع الرئيسي. الجدران السميكة من الطوب الأحمر اللامع كانت تتخللها أبواب سوداء تحمل لوحات نحاسية. عند أحد هذه الأبواب توقف زوجي وضغط على جرس كهربائي يبدو أمريكياً جداً. دوى الجرس في الداخل، وفتح الباب فتى مبتسم يرتدي ثوباً قطنياً أزرق طويلاً. عبرنا فناء صغيراً مشرقاً بالزهور والكروم، وعندما وصلنا إلى المدخل الرئيسي، دخلنا مباشرة إلى غرفة كبيرة مربعة. كانت الغرفة باردة، نظيفة ومريحة. الأرضيات المغطاة بالحصير، الطاولات والكراسي والأريكة المرتبة بمهارة، والستائر المستقيمة باللونين الأخضر والأبيض المطرزة بالذهب، كانت تماماً كما كنت أتمنى أن أختارها لنفسي. تفاجأت بسرور من الثريا الغازية ذات الظلال الخضراء والذهبية والبيضاء. مشعاع غازي أخضر داكن على طول أحد الجدران أشار إلى أن شانغهاي لم تكن دائماً دافئة كما كانت في ذلك الوقت. كان منزلاً صغيراً متواضعاً، يناسب رجلاً يسعى لتحقيق طريقه بنفسه، كما شرح لي تشان-كينغ بينما كان يقودني عبر الغرف لاستعراضها بسرعة. ثم أُسلم ويلفريد إلى مربيته، امرأة شابة ذات خدود وردية ترتدي معطفاً أزرق، مع بنطلون أبيض ومريلة، بينما استعدينا لموعد غداء مع أصدقاء صينيين لـ تشان-كينغ.

بعد رحلة قصيرة بالريكشا، كانت جديدة وممتعة بالنسبة لي، انعطفنا من الطريق الرئيسي إلى سلسلة أخرى من الشرفات ودخلنا منزلاً صينياً حقيقياً. المضيف والمضيفة، اللذان كانا في أمريكا ويتحدثان الإنجليزية بطلاقة، كانا في غاية الترحيب. شعرت بأنني في بيتي أكثر مما كنت أعتقد أنه ممكن. تم تقديم الغداء على الطريقة الصينية، حيث جلس الضيوف حول طاولة مستديرة كبيرة، مع وضع أطباق اللحوم والأسماك والخضروات في الوسط، حتى يتمكن كل شخص من خدمة نفسه كما يشاء. كانت هناك أوعية فردية من الأرز، أطباق صغيرة، عيدان تناول الطعام وملاعق عند كل طبق. كانت هناك أيضاً أطباق صغيرة تحتوي على صلصة الصويا، الخردل، الكاتشب، بالإضافة إلى بذور البطيخ المحمصة واللوز. عندما قدمت المضيفة، التي كانت قد أعدت قائمة طعام صينية لذيذة مع خبز وزبدة وآيس كريم ناعم، سكيناً وشوكة فضية لي، شرح زوجي أنني بارعة إلى حد ما في استخدام عيدان الطعام. على الرغم من أنه كان قد علمني استخدام زوج رفيع من العاج الذي يمتلكه في الأيام الأولى من زواجنا. كنت أشعر بالتوتر الشديد، لكنني شعرت بأنني ملزمة بإثبات ادعائه السعيد. وهكذا بدأ تكيّفي الاجتماعي كزوجة صينية هناك، أمام جمهور ودود وممتع، والذي أكد لي أنني أبليت حسناً.

في طريق العودة قال تشان-كينغ: "هل سيكون هذا صعباً عليك، مارجريت؟"

"عيدان الطعام؟ -سألت بمرح، وأنا أعلم جيداً أنه لم يكن يقصد عيدان الطعام- لا، أنا أحبها".

"أعني كل شيء -قال بجدية شديدة.- الصين، العادات، الناس، الحنين إلى الوطن، كل شيء".

"سترى ما إذا كنت لم تتزوج شرقية حقيقية، أما بالنسبة للحنين إلى الوطن، لماذا، تشان-كينغ؟ أنا في بيتي".

كان أهم شيء في البداية، من الناحية المادية، هو أن تشان-كينغ

يجب أن يشق طريقه دون مساعدة من أي نوع. وهذا كان صعباً جداً بالنسبة للصينيين من الطبقة العليا. كان يدرس اللغة الإنجليزية المتقدمة في واحدة من أكبر الكليات في شانغهاي، ويعمل كممارس قانوني، ويقدم محاضرات في القانون الدولي. كان سعيداً بالعودة إلى الوطن، مليئاً بالحماس لعمله، متفائلاً كما يكون الطلاب العائدون دائماً في البداية، ومن خلال عدم قدرته على الحد من جهوده، كان يعمل فوق طاقته.

سعادتنا بأن نكون معاً مرة أخرى جعلت كل شيء يبدو ممكناً. من بداياتنا المتفرقة في أمريكا، جمعنا مرة أخرى في أيدينا الحياة التي كنا نتوقع أن نجعلها مليئة وغنية. دوري، كما أدركت، كان أن أكون زوجة تقليدية بحق. الدور الذي كنتُ

مؤهلة له بشكل أفضل، والأكثر فائدة لـ تشان–كينغ. وبدأت بإدارة منزلي الصيني باهتمام دقيق لتوفير راحته بطرق صغيرة كان يحبها ويقدرها دائماً.

كان منزلنا المكون من طابقين يحتوي على غرفتين كبيرتين في الطابق الأرضي، وغرف نوم وحديقة صغيرة على السطح في الطابق العلوي. في هذه الحديقة الصغيرة على السطح قضيت معظم وقتي، وهناك قضى ويلفريد ومربيته العديد من الظهيرات. كانت مكاناً مشمساً وممتعاً، مزوداً بكراسي مطلية، سجاد ونباتات مزهرة في أواني فخارية. في الخلف، بعيداً عن الجزء الرئيسي من المنزل، كان المطبخ، غرف الخدم وغسيل الملابس في الهواء الطلق. كنا عمليين جداً وعصريين ومرتاحين. وفر مطبخنا حلاً وسطاً رائعاً بين الطرق القديمة والجديدة. كان يحتوي على موقد غاز إنجليزي وآخر صيني. لكن الجو الصيني المناسب كان محفوظاً بفضل ثلاثة خدم مدربين جيداً كانوا يطلقون على أنفسهم أه تشينغ، أه لينغ، وأه بو. معظم الخدم في شانغهاي يُطلق عليهم ببساطة فتى أو مربية أو حمال، لكن خدمنا اختاروا تلك الأسماء، التي كانت مميزة للخدم هناك مثل جيمس وبريجيت لدينا. أه تشينغ كان يقوم بمعظم الأعمال المنزلية وتنفيذ المهام، أه لينغ كان يتسوق ويطبخ، ويقدم لنا مجموعة متنوعة من الأطباق الصينية والأجنبية، أه بو، المربية، كانت تعتني بويلفريد وتلبي احتياجاتي الشخصية.

منذ البداية كنتُ مولعة بـ أه بو، بملامحها الذكية والجميلة، صوتها الناعم وطريقتها الهادئة وغير المتعجلة. كانت قد خدمت سيدة أمريكية قبل أن تأتي إلي، لكنها أظهرت استعداداً مدهشاً لتبني طريقي الخاص في القيام بالأشياء، سواء في ترتيب الأسرة، أو في الحفاظ على ملابسي مرتبة، أو في تسلية ويلفريد. من ناحية أخرى، أه تشينغ، الكبير في السن، الجاد والمليء بالمسؤولية، كان يميل إلى طريقته المعتادة في ترتيب الأثاث وغسل النوافذ والأرضيات. إذا تُرك لوحده، كان ينظف الزوايا والأركان بدقة، ولكن إذا قمت بأي تفتيش رسمي على أعماله، كان دائماً يتجاهلها، للإشارة إلى أنه لا يجب أن يكون مشكوكاً به، كما أوضح لي صديق، شكل من أشكال المنطق الذي وجدته مضحكاً للغاية. أه لينغ، بجانب مهاراته الطهوية، كان مثيراً للاهتمام بشكل رئيسي، لأن عينيه كانتا مائلتين حقاً، كما يُفترض أن تكون عيون الصينيين، وعادة لا تكون، ولأن شعره كان مجعداً حقاً، كما يُفترض ألا يكون شعر الصينيين.

بالنسبة لزوجين شابين يسعيان للاقتصاد، ربما بدونا مفرطين في الإنفاق. في ظروف مماثلة في أمريكا، ربما كنتُ سأعتبر حتى وجود خادم واحد إسرافاً. لكن هذا المنزل كان صغيراً جداً بالنسبة للصين، وبدخلنا المتواضع، كنا نحافظ عليه بهامش مُرضٍ.

كان تشان–كينغ مفيداً وأظهر لطفاً وفهماً كبيرين في إدارة منزلنا. لم أكن لأعترف بحيرتي التامة في محاولة إدارة خدم لا يفهمون نصف ما أقوله لهم. أعتقد أنه أدرك أنني كنت أتمسك بقوة في بعض الأحيان خلال تلك الأشهر الأولى، ولم يخذلني أبداً. في المقابل، كنتُ أساعده في مراجعة أوراقه في المساء وأساعده في رسائله، وكان يطلق علي سكرتيرته. اكتشفنا خلال السنة الأولى في الصين أننا كوّنا شراكة حقيقية.

كانت حياتنا الاجتماعية ممتعة جداً. كنا نستضيف كثيرين، بطريقة بسيطة. كنا ننتمي إلى نادٍ أو اثنين وكنا على اتصال وثيق بعمل الطلاب العائدين، الذين أصبحوا عاملاً مهماً في الحياة الوطنية. على الرغم من رغبتهم في الحفاظ على ما هو أفضل في حضارة الصين، إلا أنهم كانوا يجلبون الأفكار الغربية لحل المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. العديد من هؤلاء الطلاب، بالإضافة إلى أشخاص مثيرين للاهتمام آخرين، سواء صينيين أو أجانب، كانوا يجتمعون في منزلنا لتناول العشاء والشاي. كان هناك رجل عجوز من قدامى موظفي الجمارك، ممتلئ الجسم ذو شوارب بيضاء منتصبة، وكان واحداً من أول مجموعة من الطلاب الحكوميين الذين أُرسلوا إلى أمريكا قبل خمسين عاماً. كان يحكي قصصاً مثيرة عن صعوبات وأفراح تلك الأيام الأولى، وكان يندب بحس فكاهي حقيقة أن فطيرة التفاح الحقيقية لم تكن متوفرة في الصين. وكان هناك محرر بارز في الصحف الإنجليزية، رجل طويل القامة ونحيل، هدوؤه الشديد يوحي بقوة عقلية كبيرة. وكان يرافقه غالباً رجل قصير القامة ونشيط في أوائل نضجه، مربٍّ بعيد النظر وخطيب مقنع. أتذكر نقاشاً حيوياً أطلقاه حول الحاجة إلى مجلة صينية مخصصة لاهتمامات المرأة الصينية الحديثة، حلم مبكر، أصبح الآن يتحقق. وكان هناك عضو برلمان متقاعد

يتمتع بحماسة لا تنضب للنقاشات السياسية، وقد عاد منذ ذلك الحين لخدمة حكومته. كما كان هناك شاب مبتسم، كان يجول لإقناع الصين القديمة بضرورة التقدم، ولكنه كان يستطيع في بعض الأحيان أن يضع كرامته جانباً ليمارس موهبته في تقديم فقرات كوميدية مسلية. وكان هناك الابن الصيني-الأمريكي لدبلوماسي سابق، الذي ولد في أمريكا وجاء إلى الصين كرجل ناضج، بدا أنه يعترف بوضوح بقرابته مع أرض أجداده، وهي حقيقة وجدناها أنا وتشان-كينغ مثيرة للاهتمام لما قد تحمله من دلالات على مستقبل أبنائنا. وبطبيعة الحال، كان معظم أصدقائنا من الشباب العصريين، الذين كانوا يخففون من قيود الشكليات القديمة في حياتهم اليومية. ولكن العديد من كبار السن والمحافظين كانوا أيضاً يحضرون اجتماعاتنا المسائية، حيث كنا أنا وزوجي نستقبل الضيوف جنباً إلى جنب.

عندما تعرفت على الصينيين، كنت مسرورة ببراعتهم الاجتماعية. ينظرون إلى رقة الأسلوب واللباقة على أنهما أساس الحياة الاجتماعية. أعجبتني بشكل لطيف درجة الاحترام التي كانوا يظهرونها للزوجات والبنات والأخوات والصديقات، وهو أمر مختلف تماماً عن الازدراء الذي تتصور المخيلة الغربية أنه نصيبهم الدائم. في بعض الأحيان كنت ألاحظ أحد الأزواج يترجم الحديث بعناية، حتى تتمكن زوجته من الاستمتاع الكامل بالمحادثة. ومع ذلك، كانت العديد من النساء يتحدثن الإنجليزية بطلاقة. كانت جميع استقبالاتنا وحفلات العشاء لدينا ممتعة ومليئة بالمحادثات الجيدة. يتمتع الصينيون بموهبة جميلة في قول الأشياء العميقة بخفة، ويمكنهم التفكير بعمق دون أن يكونوا ثقيلين أو متحذلقين.

أتذكر أول حفل عشاء حضرته في شانغهاي. كان حدثاً فخماً إلى حد ما، مع العديد من الضيوف، جميعهم صينيون باستثنائي. "وأنا تقريباً صينية"، قلت لزوجي. كان الرجال والنساء يجلسون معاً حول طاولة كبيرة واحدة، في مزاج ممتاز مع بعضهم البعض، وكان الحديث مرحاً جداً. قالت لي امرأة صينية شابة كنت أعرفها جيداً لاحقاً: "تخيلي، العام الماضي في هذا المنزل كنا سنجلس على طاولات منفصلة". عندما طلبت منها أن تشرح، قالت إنه في الماضي لم يكن الرجال يجلبون ضيوفهم إلى منازلهم على الإطلاق. ثم بدأوا بجلبهم، ولكنهم كانوا يستضيفونهم في الجزء الخاص بالرجال من المنزل. لاحقاً سمحوا للنساء بتناول العشاء في نفس الغرفة، ولكن على طاولات منفصلة، والآن ها نحن نتبادل أطراف الحديث ونأكل معاً تماماً على الطريقة الغربية. "يروقني هذا أكثر بكثير". قررت السيدة الصغيرة.

كنت سعيدة برؤية أنهم جميعاً كانوا يرتدون الملابس الصينية، لأنها جميلة بشكل مؤثر. ارتديت سترتي الأولى والتنورة المطوية في تلك الليلة، مزيج من الساتان الأخضر الفاتح والأسود، ومن حين لآخر كنت أرى عيون تشان-كينغ تتجه نحوي بالنظرة التي كنت أحب أن يراني بها. عاطفة واضحة ودافئة تتألق في عينيه، توهج ثابت من التعبير يحمل في طياته الحب والصداقة والتفاهم. أعتقد أن رؤيتي مرتدية ملابس بلده أكدت في ذهنه إعلاني أنني أحب الصين، وأنني أريد أن أكون زوجة صينية حقيقية.

بعد ذلك، على الرغم من أن الأسلوب الأمريكي بدا أكثر ملاءمة في بعض المناسبات، كنت أرتدي الملابس الصينية كثيراً. أتذكر يوماً عندما جاء الدكتور وو تينغ-فانغ لتناول العشاء، وعندما انحنى لي، ولاحظ بوضوح ملابسي. نظر إلي بحدة للحظة، كما لو كان ينوي طرح سؤال جدي. ثم قال بأسلوبه المباشر: "هل أنت سعيدة بهذا الزي؟"

"بالتأكيد أنا سعيدة".

"هل تحبينه أكثر من الملابس الأمريكية؟

أومأت برأسي بحزم، مبتسمة والتقطت نظرة زوجي.

"إذن ارتديه دائماً".

وبشكل غريب، لم يكن زوجي يحب موضة السراويل النسائية المحلية، ولم يسمح لي أبداً بارتدائها. كنت أعتبرها أنيقة ومريحة، لكنني بكل سرور تبنيت التنورات البسيطة جداً مع الطيات على الجانبين.

كنت قد ارتديت الصين، لأرتديها دائماً، في قلبي وعقلي، ولم أفكر إلا في زوجي، عمله وشعبه. في البداية، كنت سأكون سعيدة تماماً بالبقاء في عزلة، ولقاء عدد قليل من الصديقات، وعدم الذهاب إلى أي مكان. كانت الحياة تنساب بجانبي بسلاسة لدرجة أنني كنت سعيدة بالانجراف معها، مليئة بالأحلام. كانت ضوضاء شانغهاي المتعجلة وشبه الحديثة تصل

إلي بشكل غامض، في أعماق منزلي الهادئ والبارد حيث كانت الأرضيات مغطاة بالحصير الأبيض والجدران مزينة بلوحات رمزية. كان صوت حوافر الخيول على الرصيف، ووقع كعوب عمال الريكشا وهم يسحبون مركباتهم الصامتة ذات الإطارات المطاطية، والصوت الحاد لبواقي السيارات، والصيحات الطويلة الغريبة لباعة الشوارع، كلها كانت تصل إليّ مكتومة كما لو كانت تمر عبر ستائر كثيفة تحميني من العالم. لكن زوجي أصر على أن أخرج معه إلى كل مكان شعر أنه يجب أن نذهب إليه، وأن أساعده في استقبال الضيوف، وأن ألتقي وأختلط بالعديد من الناس، سواء كانوا أجانب أو صينيين.

كان دائماً مستعداً لإسداء النصح لي في الأمور الاجتماعية، وهي مهمة أكثر صعوبة مما قد يتصور المرء. لقد تحدثت بالفعل عن العديد من الدرجات في لقاء الشرق والغرب. هذه الدرجات وحدها كافية لإثارة الارتباك، وهناك تعقيدات إضافية بسبب حقيقة أن النقاط الدقيقة للآداب في الحضارتين غالباً ما تكون مختلفة تماماً. مثال واحد سيكون كافياً: عادة تقديم أشكال المرطبات للضيف، بمجرد جلوسه. في المنزل الصيني المحافظ جداً، إذا لمس الزائر كوب الشاي الموضوع بجانبه على طاولة صغيرة، فهو مذنب بخرق فادح للأدب. في المنزل العصري للغاية، يجب عليه أن يشرب المشروب البارد في الصيف أو المشروب الساخن في الشتاء، لتجنب الإساءة. ثم هناك المنازل المتنوعة المعدلة، حيث يحاول الضيف تحقيق درجة دقيقة من التسوية، سواء بالاعتراف بالعرض مجرد انحناءة لطيفة، أو بالذهاب أبعد من ذلك برفعه إلى الشفتين لرشفة أنيقة، أو بأن يكون أكثر تساهلاً ويستهلك نصف الكمية المقدمة. لقد سمعت اعترافات ضاحكة في العديد من النقاشات الحية بأن مثل هذه المواقف غالباً ما تكون محيرة، حتى للصينيين الشباب. ولكن، على الرغم من أن الأخطاء العرضية لا مفر منها، فإن النية الحسنة الصادقة تُقدّر حقاً، ونادراً ما تُساء فهمها. كانت قدرة تشان-كينغ على النظر إلى جميع النقاط مرة واحدة، مفيدة جداً لي.

لكنه نسي أن يحذرني من أن الزيارات الاجتماعية في شانغهاي تكون مناسبة في أي ساعة من النهار من التاسعة صباحاً حتى العاشرة مساءً. وهكذا استغرقت ثلاثة أيام لأتعلم، خلال غيابه القصير، أن الزيارات الصباحية الباكرة والمسائية المتأخرة كانت عادة، وليست حدثاً عرضياً، كما افترضت في البداية. في النهاية، أعطاني آه تشينغ تلميحاً. كنت في ملابس غير رسمية، أستعد لصباح من اللعب الكسول مع ويلفريد وأتمنى ألا يكون هناك أي مقاطعات، عندما ظهر آه تشينغ وأعلن عن زوار. لا بد أن وجهي أظهر الدهشة وعلامة من الانزعاج، كما كان عليه الحال لمدة ثلاثة أيام سابقة عند هذه الاستدعاءات، لأن آه تشينغ تردد للحظة ثم قدم ما اعتبره معلومة قيمة. قال آه تشينغ: "في شانغهاي، هو دائماً يذهب ليرى، دائماً يأتي ليرى. دائماً"أضاف بحزم وخرج. وجدت أن هذا صحيح حرفياً، وبالتالي غيرت عاداتي في اللباس، على افتراض أن الزوار الذين يتطلبون أقصى درجات الشكليات في السلوك والمظهر، قد يعلن عنهم في أي لحظة.

وغني عن القول، أن "هو"التي استخدمها آه تشينغ كانت إنجليزية بسيطة تعني "هي"، لأن جميع زواري كُنّ من النساء. من جنسيات متعددة، صينيات بالطبع، وأيضاً أمريكيات، كنديات، إنجليزيات، اسكتلنديات وفرنسيات. مع الصينيات، خاصة، كنت أجد نفسي في تناغم تام. في أي مكان، أعتقد أن الصدق والنوايا الحسنة لا تجد استجابة أكثر دفئاً. لقد قبلنني بحرارة حقيقية، وقدمت مساعدة لا تقدر بثمن في بدء حياتي الجديدة. أخذنني في زيارات، تسوق وتسويق حتى لم تعد شانغهاي تبدو كمتاهة محيرة من الشوارع المزدحمة. ساعدنني على فهم تعقيدات العملة الصينية، وشرحن لي النقاط الدقيقة في موضة الملابس، واقترحن علي خياطين ماهرين.

منذ البداية، كنا مهتمين بشدة باللقاء والاندماج بين الشرق والغرب الذي كان يحدث حولنا في كل مكان، في كل مجال من مجالات الحياة. وجدنا فرصة فريدة للحصول على انطباعات جديدة في الألعاب الأوليمبية الشرقية الثانية التي أقيمت في شانغهاي ذلك الربيع. في حضور آلاف المتفرجين، تنافست الصين والفلبين واليابان من أجل التفوق في البراعة الرياضية. تمت إدارة الحدث بالكامل من قبل الصينيين، وخلال معظم المسابقات كان زوجي مشغولاً في الميدان في مهمة رسمية. جلست في المدرج مع صديقات صينيات، بعضهن كنّ طالبات عائدات. وكانت الهتافات الحماسية والحماس الصادق يذكرننا بأيام الكلية في أمريكا. كانت الأمسيات مليئة بالاستقبالات وحفلات الحديقة على شرف الزوار. بالطبع،

كانت سعادتنا بالحدث كله تزداد بشكل لا يُقاس بانتصار الصين المستحق.
مع مرور الأشهر، بدأ حماس تشان–كينغ العالي وإرادته التي لا تلين لتنفيذ عمل عظيم في تعليم شباب الصين، تتراجع إلى حد ما، بسبب خيبة أمل مروعة. هذه هي المشكلة التي يواجهها جميع الطلاب العائدين عاجلاً أم آجلاً ويجب عليهم التغلب عليها. يعودون إلى الوطن ممتلئين بالأمل ومليئين بالطموحات نحو تحسين بلدهم. وبشكل تدريجي، يُجبرون على الاعتراف بحقيقة هائلة. أن الصين كانت نفسها القديمة المجيدة والمخيفة لقرون عديدة، أقدامها غارقة بعمق في تربة تقاليدها القديمة، بحيث لا يمكن اقتلاعها من قبل جيل واحد من الشباب، أو جيلين أو ثلاثة أو مئة.
كان تشان–كينغ يشعر بالضيق والقلق ويعمل بجد أكثر من اللازم. وبشكل غريب، بدأ يشعر بالحنين إلى أمريكا، على الرغم من أنني لم أشعر بذلك. قال بمرارة في أحد الأيام بعد حضور اجتماع مجلس الكلية، حيث عانت أفكاره الحديثة حول التعليم من هزيمة على يد الهيئة الرجعية: "أمريكا تخطو كفتى صغير، والصين تزحف كعجوز".
فأجبتُ بلطف: "لكن الصين عجوز حكيمة، حكيمة جداً".
وخلال هذا الوقت، كنتُ غالباً ما أدافع عن تقاليد الشرق بينما كان تشان–كينغ يدافع عن طرق العالم الغربي.
مر زوجي بخيبات أمل وتهيجات واختبارات كانت ستكون لا تُحتمل لشخص أقل ثباتاً. ومع ذلك، كان يعاني كثيراً في الأمور الكبيرة، لدرجة أنه لم يكن لديه سوى القليل من الصبر للأمور الصغيرة. وغالباً ما وجدته سريع الغضب، بحدة في نبرة الصوت وحسم في الأحكام، مما أظهر لي بوضوح مدى الضغط الكبير الذي كان يعاني منه.
لكن بيننا كان هناك دائماً الحب. وكان تشان–كينغ حريصاً جداً على جعلي أفهم، حتى في خضم خيبات الأمل الصغيرة والمضايقات، أن هذه الأشياء كانت مجرد إزعاجات بشرية عالمية ليس لها علاقة بالندم أو الشعور بالاغتراب. في أحد الأيام، انفجرت في البكاء عندما حدث موقف صغير حاد دون سبب. قال لي: "أوه، مارجريت، عزيزتي". بينما كان يحتضنني. "هذه الحالات المزاجية لا تعني شيئاً بيننا، عندما نحب بعضنا البعض بهذا القدر، لا تأخذيها على محمل الجد. ماذا يمكن أن يدمر سعادتنا الآن؟"على الرغم من الاختلاف الكبير بين عرقينا وتربيتنا، فإن أي صعوبات في التكيف الشخصي كان علينا مواجهتها، لم تختلف عن تلك التي يجب أن يواجهها أي زوج وزوجة في أي بلد.
ومع ذلك، كان سحر تشان–كينغ الشخصي بالنسبة لي، وجاذبيته التي لا تنضب في خيالي، مبنية بشكل واضح على الصفة الشرقية فيه. وجدت على مر السنين، في كل مرحلة من مراحل علاقتنا، إثارة مستمرة لا تقاوم ومتكررة دائماً في فكرة أننا لسنا من نفس العرق أو الحضارة.
في إحدى المرات، عندما اعترفت له بهذه الحقيقة، قال: "هل تحبينني فقط لأنني صيني؟"
"لا، أعتقد أنني كنت سأحبك بغض النظر عن العرق الذي تنتمي إليه. لكن كيف يمكنني أن أعرف؟"
"أحب أن أشعر أنك تحبينني أنا، الجوهر الحقيقي لي".
"نعم، لكن الجوهر الحقيقي لك هو أنك صيني".
فكر للحظة: "صيني، نعم، لكنني عضو محترم في الكنيسة الهولندية الإصلاحية في أمريكا".
ضحكت وقلت: "لن أدع ذلك يؤثر على نظرتي إليك".
كنتُ منتمية للكنيسة الأنجليكانية، وكنا غالباً ما نشير إلى الخليط الغريب من الجنسيات في عقائدنا.
كان زوجي، على الرغم من إيمانه الراسخ، ليس من النوع المتدين، ومن بيننا كنتُ أكثر تصوفاً في معتقداتي. أصبح الحب، الإلهي والبشري، يعني لي كل شيء، بالمعنى الحرفي والروحي. كنت أؤمن، بشكل غامض في البداية، ولكن مع زيادة اليقين والإيمان مع مرور الوقت، أن الحب البشري أيضاً ليس فقط للحاضر، بل للأبدية أيضاً. وعندما اكتشفت أن تشان–كينغ لا يشاركني هذا الاعتقاد، شعرت، للمرة الوحيدة في زواجي كله، بالاغتراب عنه، محجوبة بحجاب غير ملموس عن عمق حياته الداخلية، أنا التي كنت أرغب بشغف أن أشاركه في كل شيء. جاء هذا الاكتشاف جنباً إلى جنب مع أول ظل، فقط ظل، كما يمكنني أن أسميه، شيء غامض جداً، لدرجة أننا لم نشعر بأكثر من قلق.
مرض تشان–كينغ، وإن لم يكن بشكل خطير، وتعافى بسرعة. لكن في مرحلة التعافي، لم يستعد أبداً المستوى القديم من

الرفاهية الجسدية. كانت هناك علامات، تحذرنا من انهيار بطيء وخطير في جسده بسبب مرض السل. لم نكن نريد أن نصدق ذلك. نصحه طبيبه بتخفيف عبء العمل قدر الإمكان. تحدثنا معاً في العديد من الليالي، وكان تشان-كينغ دائماً يصر على أن اكتئابه كان نتيجة إرهاق مؤقت، سيزول بالتأكيد بعد قضاء بضعة أسابيع من الراحة في الهواء الطلق في التلال.

خلال هذا الوقت، تحدثت معه عن خلود الحب وإيماني بحياة أخرى بعد الموت. سألته بانتصار غريب: "إلى أين يمكن أن يأخذ الموت أحدنا دون أن يتبعه الآخر؟"

نظر إليّ طويلاً. كان وجهه حزيناً جداً. قال: "لست متأكداً من ذلك. ليس لدي أي فكرة عما سنكون عليه لبعضنا البعض في حياة أخرى. أنا فقط متأكد من أننا كل شيء لبعضنا البعض الآن".

سيطر عليّ شعور لا يُوصف بالخوف. بدا تشان-كينغ فجأة غريباً وبعيداً بشكل مرعب، لم أستطع الكلام، لأنني شعرت وكأنني أتحدث بلغة غريبة عبر هوّة كبيرة. لم أقل شيئاً خوفاً من إزعاجه، لكنه لا بد أنه قد شعر بقلقي، فأخذ يدي ووضعها على وجهه وترك عينيه عليّ: لا تنظري هكذا. لدينا الكثير من الوقت للتفكير في الأبدية".

ولكن منذ هذا المرض، لم يختفِ الظل عني أبداً. بعد ذلك، جذبنا سحر الأحياء السكنية في منطقة الامتياز الفرنسي، بشوارعها العريضة المزروعة بالأشجار ومساحاتها المفتوحة التي تهب عليها الرياح. لذلك انتقلنا إلى منزل جديد في شرفة تواجه شارع جوفري. أحببنا غرفنا الكبيرة، كل منها يحتوي على مدفأة مبلطة، وأرضيات مصقولة مغطاة بسجاد تيانجين، وإضاءة كهربائية. كان هناك حديقة عشبية تحتوي على أوركيد صيني وحواف من النخيل والمغنوليا، وعلى بعد خطوات منا، كانت هناك حديقة عامة حيث كان ويلفريد يلعب مع عشرات الأطفال يومياً تحت إشراف مربياتهم. زاد عدد خدمنا الآن إلى خمسة بإضافة حمال ريكشا ومربية ثانية.

تلقى تشان-كينغ بعد ذلك بوقت قصير رسالة من والده، وهي أول اتصال له مع عائلته منذ زواجنا. كانت الرسالة تحتوي على دعوة للعودة إلى المنزل لزيارة العائلة، حيث كانت والدته ترغب بشدة في رؤيته مرة أخرى.

قال لي تشان-كينغ بلهجة حائرة: "يمكنني تفسير هذا بطريقة واحدة فقط، مارجريت. إنها عرض للمصالحة. هذا يعني أنهم لا يعرفون أنك معي".

"اذهب وتأكد بنفسك". لأنني كنت سأوافق، من أجله، على المصالحة بأي شروط تقريباً. لقد رأيت ما يكفي من الحياة الأسرية الصينية، لفهم الروابط القوية من المصلحة والمحبة التي تربط العائلة معاً. وشعرت في قلبي بقسوة كسر تلك الروابط بين الأم والابن والإخوة.

أجاب تشان-كينغ: "أريد أن أخبرهم عنك. هذه هي فرصتي".

قبل قبول الدعوة، كتب تشان-كينغ إلى عائلته وأخبرهم أن زوجته معه. وردودهم على ذلك أثبتت أنه كان محقاً في استنتاجه الأول. كانت عائلته تعلم أنه عاد إلى الصين، وبما أنها لم تسمع أي شيء آخر عن زواجه، افترضت أن الأمر قد انتهى. لم يكن هذا الاستنتاج مفاجئاً بالنسبة لهم. أكثر من امرأة أجنبية رفضت مرافقة زوجها الصيني إلى الوطن. أنا نفسي صادفت بعض الأسر المنقسمة، حيث كان الزوج الصيني محتجزاً في الصين بسبب أعماله، بينما كانت زوجته تنتظره على الجانب الآخر من العالم. في بعض الأحيان، كانت الزوجة لا تنتظر، وينتهي الزواج بالطريقة التقليدية، أي في محكمة الطلاق. تخيلت عائلة تشان-كينغ أن شيئاً من هذا القبيل حدث له، وكانت مستعدة تماماً لنسيان الخلافات القديمة واستئناف روابط العلاقة.

بعد أن كتبوا الرسالة الأولى للمصالحة، تمسّكوا بموقفهم بطريقة نبيلة، مع تعديل ترحيبهم قليلاً بطلبهم منه زيارتهم بمفرده. وضعوا الأمر بتكتيك ولطف شديدين على هذا النحو: والده كان يشيخ وأي تغيير مفاجئ يزعجه، الأسرة كانت قد توسعت مؤخراً بالزواجات والمواليد، وسيجد كل شيء أكثر راحة إذا جاء بمفرده.

ذهب تشان-كينغ، مصمماً على تغيير رأي عائلته تجاهي. وأنا أيضاً كنت قلقة من أن يعرفوا أن زواجاً أجنبياً لم يضر بـ تشان-كينغ. خلال الأسابيع الستة من غيابه، كانت رسائله مبتهجة وغير ملتزمة، على الرغم من أنه تحدث عن سعادته

بكونه في منزل والدته مرة أخرى. فكرت كثيراً في ذلك المنزل، وحياة الناس المعقدة فيه، ودرجات القرابة والسلطة المتعددة بينهم. كان تشان–كينغ قد أخبرني بما يكفي لرسم صورة واضحة لهم. كنت دائماً معجبة بقدرتهم على الحفاظ على علاقات صعبة تحت سقف واحد، مع الإبقاء على روح طيبة ولباقة متبادلة.

ومع ذلك، كنت غريبة بما يكفي لأشعر أن تشان–كينغ وأنا، نعرف بعضنا البعض بشكل أفضل، وكنا أكثر حرية في التعرف على بعضنا البعض بعمق، بمفردنا في منزلنا الذي كان يتحول إلى نمط صيني تماماً. كنت أتوقع طفلي الثاني وتطلعت، مع الكثير من الأمل، إلى الحياة الجديدة، لأنني كنت دائماً أمومية بشكل عميق وأردت عدة أطفال. ولكن بالنسبة لي وتشان–كينغ، فقد كان حبنا لبعضنا البعض هو الشيء الأهم في الحياة. السبب وراء كل ما تبقى من وجودنا. قبلنا حقيقة الولادة بشكل طبيعي كما نقبل تغير الفصول. الأطفال كانوا ضروريين لسعادتنا، ولكن ليس العنصر المهيمن. رتبنا منزلنا لأنفسنا، كعاشقين اختارا قضاء حياتهما معاً.

عبر تشان–كينغ عن وجهات نظرنا قائلاً: "الفكرة الصينية هي أن الأسرة هي الهدف، والأطفال هم الوسيلة للحفاظ عليها. في الغرب، الأطفال هم الهدف، والمنزل مجرد وسيلة للحفاظ عليهم. أنا أعتقد أننا قد عدلنا الأمر بشكل مثالي، المنزل هو لنا جميعاً، وكل منا له مكانه المناسب فيه".

عاد تشان–كينغ في صباح أحد الأيام مبكراً، وعرفت من النظرة الأولى إلى وجهه أن زيارته كانت مثمرة. طرت إلى أحضانه، وعندما قبلني، رأيت أن عينيه كانتا هادئتين وراضيتين.

سألته مع انحناءة: "كيف حال والدتك الجليلة، سيدي؟"

"والدتي في صحة جيدة وتريد مقابلة زوجة ابنها".

وعلى الرغم من النبرة المازحة، كنت أعرف أنه جاد. كنت أرغب في معرفة كيف حدث هذا التغيير في المشاعر.

قال تشان–كينغ: "عندما أخبرتهم عنك، كانت والدتي مندهشة بشكل واضح. كانت تكرر: "لم أفهم! لم أفهم! وقبل أن أغادر، قالت لي: إذا كانت كل ما تخبرني عنه، لماذا لا تجلبها إلى هنا؟ لم أذكر حقيقة أن هذه كانت دعوتنا الأولى، مارجريت! هل ترغبين في الذهاب، عزيزتي؟".

ترددت للحظة. ثم أجبت: "نعم، ولكن ليس الآن".

أكد لي تشان–كينغ: "لن نذهب لفترة من الوقت".

تحدثنا كثيراً عن زيارة زوجي، وحصلت على رؤية جديدة حول الحقائق الفعلية لانفصاله عن عائلته، والأهمية الكبيرة التي اتخذها زواجه في أذهان أقاربه الصينيين. بالكاد يمكنني المبالغة في أهمية المكانة التي يحتفظ بها الابن الأكبر في الأسرة الصينية العليا. بعد والده، هو الذكر الرئيسي للعائلة. زوجته هي الظل المرافق، الرفيقة الدائمة لوالدته. عبارتنا "الرجل يتزوج"تُعبر عنها في الصينية بـ "يقود امرأة جديدة". في ظل النظام القديم، كان يفعل ذلك حرفياً، لأنه كان دائماً يجلب عروسه إلى منزل أجداده. العبارة الخاصة بزواج الفتاة هي "تخرج من العائلة". "المرأة الجديدة"، هو مصطلح يُطلق على العروس.

التعليم الغربي للعديد من الشباب من الطبقة العليا الصينية، أدى إلى بعض التعديلات الحادة في الأسر التقليدية. غالباً ما يعود هؤلاء الأبناء الأكبر، ويتزوجون وفقاً للعادات القديمة ويعيشون في منازل آبائهم. ولكن غالباً أيضاً، يتزوجون من نساء صينيات متقدمات، وينشئون منازل ومهن خاصة بهم، بعيداً عن مدنهم الأصلية، ويعيشون بطرق شبه أجنبية. في هذا الصدد، كانت حالتنا نموذجية إلى حد ما. كما ذكرت سابقاً، كانت والدة تشان–كينغ تتطلع لسنوات إلى زواج ابنها الأكبر من الآنسة الصغيرة لي–ينغ. كانت تتوقع في منتصف عمرها التحرر المعتاد للمرأة الصينية من قيود الشباب. بعد أن كانت زوجة وابنة طيعة ومخلصة، كانت تتوقع بحق أن تتحمل سلطة على أسرتها، معتمدة على ذراع زوجة ابنها. هذه المرأة الأصغر سناً ستأخذ مكانها في السلسلة الطويلة من البنات المطيعات، ستساعد في استقبال الضيوف، ستعتني بأضرحة العائلة، ستؤدي جميع أنواع الواجبات المنزلية تحت إشراف حماتها. عند وفاة حماتها، ستصبح المرأة الرئيسية في العائلة، مسؤولة عن كل شيء، وستنمو امتيازاتها وسلطتها مع تقدمها في السن، خاصة إذا كانت أماً لأبناء. مهمتها العظيمة

ستكون توفير أطفال للعشيرة، حتى لا تخلو الأضرحة من المصلين. أشرح هذه الأمور في هذه المرحلة حتى لا يُساء فهمي للحظة عندما أروي الحادثة التالية.

بحلول هذا الوقت، كنت قد عشت في الصين لفترة كافية لأصبح شبه متأصلة في الثقافة الشرقية، على الأقل من حيث تعاطفي، ومع ذلك، عندما توقف تشان-كينغ بعد الحديث لفترة عن أحداث زيارته إلى المنزل، وقال بتردد: "هناك شيء أريد أن أخبرك به، لكنني لست متأكداً أنك ستتفهمينه". شعرت ببعض القلق.

لكني أجبت على الفور: "بالطبع سأتفهم. الصين كانت لطيفة معي. ماذا لدي لأخاف منه؟".

ثم تابع تشان-كينغ بتروي: "لم أفهم حتى رأيت والدتي مرة أخرى أنني كنت قد فعلت شيئاً قاسياً حقاً بحقها، بحرمانها من زوجة ابن يمكنها الاعتماد عليها في شيخوختها. أوه، مارجريت، حظ المرأة ليس سهلاً، مع كل تعقيدات الآباء والإخوة والأطفال. وكنت سأعوض عن نصيبي في كل هذا لو استطعت، ولكن بالطبع لم يكن هناك ما يمكنني فعله، لا شيء على الإطلاق".

ثم أخبرني بهدوء شديد أنه بعد وصوله إلى المنزل بفترة قصيرة، كانت والدته قد أجرت معه محادثة جادة حول حاجتها إلى زوجة لابنها. وفقاً للتقاليد القديمة، كانت ترغب في أن يتزوج زوجة صينية ثانوية، تعيش في المنزل العائلي، وتكون، بشكل ما، بديلة لي في دور زوجة الابن. عرضت والدة تشان-كينغ ترتيب هذا الزواج له، وأكدت له أن الزوجة الثانوية وأطفالها سيتم الاعتناء بهم جيداً ومعاملتهم بلطف خلال غيابه الطويل.

استمعت إلى كلامه بشك، وكان السؤال الذي لم أستطع طرحه واضحاً في عيني. كنت أعلم، بالطبع، أن عادة اتخاذ زوجات ثانويات ليست غير معتادة بين العائلات الثرية في الصين، حتى عندما تعيش الزوجتان تحت سقف واحد. لكنني لم أفكر في الأمر إلا بشكل عابر. ولم يخطر ببالي أبداً أن هذه المشكلة ستلمس حياتي. عندما وجدت نفسي فجأة أمام هذه الحقيقة، شعرت بصدمة في أعماق كياني. لم أستطع التفكير، بالطبع، في اللحظة التي تلت سرد زوجي. شعرت فقط بموجة عارمة من الألم تغمرني، وشعور بالعجز التام، لم أشعر به من قبل أو بعد ذلك. أتساءل الآن عن استعدادي الفوري للاعتقاد بأن زوجي قد امتثل لهذا التقليد في بلده، وأنه قد تخلص من تدريبه الغربي عند أول اتصال متجدد مع العادات التقليدية لعرقه.

"هل.. فعلت...؟ سألت أخيراً، ثم توقفت.

جاء إلي على الفور، وأحاطني بذراعيه. عندما رأى الحزن على وجهي، عبس، مع التواء غريب ومليء بالندم في حاجبيه. قال: "أتعجب أنك تسألين. كيف يمكنني العودة إليك، وإلى إخلاصك وثقتك، مع ظل ذلك الخداع بيننا؟ أوضحت لوالدتي بشكل قاطع أنني لن يكون لي أي زوجة سواك. أنتِ وأنا معاً، عزيزتي، ولا أحد غيرنا طالما كنا على قيد الحياة".

وكانت كلماته تحمل نغمة وقورة من تحديد قسم. هذا الصدق العالي من تشان-كينغ معي كان صخرة بنيت عليها إيماني. ورفضه النهائي لشكل مقبول بين شعبه مثل تضحية حقيقية من جانبه، فيما يتعلق برفاهيته المادية. بنفس الكرم وبدون تردد كما فعل في المرة الأولى، عند زواجنا، وضع التقدمة الثانية على مذبح حبنا. كان، كما ترى، وفقاً لرأي والده ووالدته، قد ألحق بهم ضرراً لا يمكن إصلاحه في زواجه. فوق كل شيء، كان قد أنكر في نفسه الغريزة العرقية الكبيرة للصينيين في طاعة والديه. إذا كان يرغب في إرضائهم، فهذه كانت فرصته الأخيرة. اتخاذ زوجة صينية ثانوية كان سيكون تكفيراً كاملاً في عيونهم. في نفس الوقت، كان سيعني استعادته الفورية إلى مكانته الصحيحة بينهم، الأول في عواطفهم والميراث. المساعدة العائلية كانت ستضعه على الفور في الموقف الذي، بدونه، كان سيضطر للكفاح من أجله لسنوات.

وفي وقت لاحق، فهمت كيف كان يمكنه بسهولة الامتثال دون أن أكون بحاجة لمعرفة الحقيقة. في الواقع، كنت سأتمكن من العيش في منزل والدته مع زوجة ثانية، بدون أشك أبداً في وجودها في هذا الموقف. فالشعور العائلي قوي وغير متأثر، وغالباً ما يكون هنالك تحفظ وتباعد في العلاقة الشخصية عندما يتعلق الأمر بسلامة العائلة وكرامتها.

بعض هذه الأمور كنت على علم بها منذ بداية حياتي في الصين، وبعضها تعلمته ذلك اليوم في الحديث مع تشان-كينغ، والبعض الآخر، كما قلت، اكتشفته تدريجياً فيما بعد. ولكن من ذلك اليوم بالتأكيد، تغيرت علاقتنا بشكل خفي

واستقرت وتبلورت. وأصبح كلانا على يقين تام بأننا لن نخذل بعضنا البعض في أي شيء، مهما كان صغيراً. دخل إلى قلبي دفء من الراحة، مثل مصباح يحترق بثبات. كنا على يقين من حبنا دون أي احتمال للشك، أبداً مرة أخرى. ولبعض الوقت، عشنا نهضة من السعادة الشبابية، وحماساً متجدداً من الآمال والطموحات، كما لو أن الربيع قد عاد بمعجزة، حينما كنا نتوقع حلول شهر أكتوبر.

بدأت رسائل العائلة تصل بانتظام إلى تشان–كينغ، مع رسالة لطيفة لي. من الواضح أن العلاقات كانت ستستأنف على مستوى صداقة جيدة، لا أكثر. ولكن ذلك كان أكثر بكثير مما كنا نجرؤ على الأمل فيه، لذلك كنا سعداء تماماً بهذا الوضع. لا بُدّ أن تشان–كينغ قد ذكر تدهور صحته ببطء، لأن والدته أرسلت له رسالة قلقة وطلبت منه العودة إلى المنزل لفترة مرة أخرى. قرر تشان–كينغ أن شؤونه لن تسمح بغيابه وكتب لها موضحاً ذلك.

في أحد الأيام، بينما كنت جالسة في الشرفة المشمسة وأنا أخيط، ظهر آه تشينغ فجأة أمامي.

قال بهدوء: "والدة السيد، هنا في الطابق السفلي".

نظرت إليه دون فهم.

"ماذا تقول؟".

اقترب آه تشينغ أكثر. رفع يداً واحدة وعد كلماته على أصابعه ببطء. سأل بصبر: "السيدة تعرف أن للسيد والدة؟"

"نعم، نعم".

"حسناً، هي للتو وصلت. هي في الطابق السفلي".

نهضت واقفة. كنت أكثر خوفاً وتوتراً مما كنت عليه في أي وقت مضى، وتذكرت أن أكون ممتنة. كنت أرتدي زياً صينياً كاملاً، تنورة سوداء وسترة من المخمل الأزرق. هذه الحقيقة اتخذت أهمية مضحكة في ذهني بينما كنت واقفة هناك، أحاول السيطرة على نفسي. خططت لهذا اللقاء ألف مرة، والآن وقد أصبح واقعاً، كنت بلا أي موارد. تقدمت نحو الطابق السفلي بشكل مرتبك، أركض بضع خطوات سريعة ثم أتوقف فجأة وأبدأ مرة أخرى ببطء. لو كان تشان–كينغ موجوداً، لكنت هربت إليه وتركت الموقف بأكمله بين يديه، لكنني كنت وحيدة ومتأكدة من شيء واحد فقط، وهو أنني كنت أقصد كسب حب والدتي الصينية إن استطعت. بشكل ذاتي، كل القصص التي سمعتها عن الحموات الصينيات لا بد أنها أثرت فيّ أكثر مما اعترفت به، لأنني تذكرت شيئاً أخبرني به تشان–كينغ منذ وقت طويل: "لا أستطيع أن أصف لك أهمية الأم في المنزل الصيني. إنها دكتاتورية كاملة، مع سلطة شبه مطلقة على أبنائها، وزوجات أبنائها، والخادمات، والأقارب. الجميع باستثناء زوجها، الذي يكون عادة غائباً في أعماله. شيخوختها هي انعكاس كامل للقيود والانضباط التي عاشتها في شبابها".

توقفت فجأة عند باب غرفة الرسم. رأيت والدة زوجي لأول مرة. كانت قد أصبحت بالنسبة لي شخصية ذات عظمة أسطورية تقريباً، وشعرت بموجة صغيرة من الدهشة تعبرن،ي لأنها بدت حقيقية وحية وأصيلة. كانت تجلس في كرسي كبير ذو ظهر عالٍ، يديها ممدودتان بشكل مسطح على ركبتيها. كان وجهها وجه الأم الشابة في الصورة التي أظهرها لي تشان–كينغ، لكنه أصبح أكبر سناً وأكثر حدة قليلاً. كانت ترتدي بروكاداً أسود، مع طياته القاسية وثناياه الدقيقة التي تؤكد مكانتها. تحت حواف تنورتها كانت تلمع أحذيتها الرمادية الصغيرة، المطرزة بالأحمر والأخضر. بجانبها وقف القريب الذكر الذي رافقها، رجل صيني من المدرسة القديمة، يرتدي ثوباً طويلاً من الحرير الداكن. خلف كرسيها وقفت خادمة وخادمان.

كنت أعلم أنها لا تتحدث الإنجليزية، ولم يكن لدي بعد أي معرفة بلهجتها الجنوبية. كان هناك جمود حاد في الغرفة الصامتة تماماً، بينما كنا ننظر إلى بعضنا البعض.

3
زوجة الابن الأولى

شبكت يديّ على الطريقة الصينية، وابتسمت وانحنيت. نهضت والدتي الصينية على الفور واتخذت خطوة نحوّي، متوازنة على قدميها الصغيرتين بمساعدة عصا سميكة ذات رأس ذهبي. لاحظت أنها كانت طويلة بشكل غير معتاد. ثم، وبشكل مفاجئ، مدت يدها على الطريقة الأمريكية، فصافحتها، بينما كانت أعيننا تبحث في وجوه بعضنا البعض. رأيت في عينيها النظرة التي كنت بحاجة إليها للاطمئنان، مزيج من اللطف والقلق. أثر من القلق الذي كنت متأكدة أنه كان انعكاساً لتعبير وجهي. عرفت حينها أن قلبها لم يكن أكثر ثقة من قلبي، وأن هذا اللقاء كان من الأهمية بالنسبة لها، كما كان بالنسبة لي.

أحضر آه تشينغ كرسيي وجلسنا معاً، نبتسم لبعضنا البعض، ونترك إيماءاتنا تتحدث نيابة عنا. أخيراً، مدت يدها اليمنى، بكف مقلوب، تقيس ارتفاع طفل صغير من الأرض، مائلة برأسها نحوي، وحاجباها مرفوعان في سؤال. صنعت وسادة من يديّ، ووضعت رأسي عليها، مغمضة عيني، ثم أشرت إلى الأعلى. كنا كلانا سعيدين بهذا التمثيل الصامت البسيط. الرجل المسن –ابن عمها– بدا سعيداً بتعاطفه، وحتى الخدم الثلاثة الجادين ابتسموا قليلاً. سألتني بإيماءات عن مكان زوجي. أشرت بشكل واسع وشامل نحو الشارع، في الاتجاه العام للمدينة. أومأت برأسها، مسترخية قليلاً، وتنفست بعمق. لقد وصلنا إلى نهاية قدرتنا على المحادثة دون مساعدة مترجم.

عندما سمعت رنين جرس تشان–كينغ عند البوابة، أسرعت للقائه حاملة أخبار وصول والدته. كان أكثر حماساً مني وأسرع أمامي إلى المنزل. مشيت ببطء شديد حتى يتمكنا من التحية الأولى دون إزعاج، وعندما وصلت، كانا يبتسمان لبعضهما البعض ويتحدثان بلهجة المقاطعة الجنوبية عن طفل صغير نعسان وممتلئ الجسم، أمر تشان–كينغ، بفخر أبوي، بإحضاره لتحية جدته على الفور.

بعد استقرار الحاشية، أخبرني تشان–كينغ أن والدته ستقيم معنا لمدة ستة أسابيع. خلال هذا الوقت، تعلمت فن التمثيل الصامت بما يفوق كل ما كنت أتوقعه من طبيعتي الهادئة. كنت أنا ووالدتي الصينية نتحدث بالحاجبين، اليدين، الابتسامات، الإيماءات بالرأس، والكثير من تحريك العينين. شعرت فوراً بالمودة والإعجاب تجاهها، واتخذت تجاهي موقفاً لطيفاً وثقة مما أسعدني كثيراً.

أحضرت لنا هدايا، على الطريقة الصينية: لي، سلسلة ذهبية صينية بديعة الصنع في صندوق من خشب الصندل المنحوت؛ لـ ولفريد، عشرات الملابس الصينية ذات الألوان الزاهية التي يرتديها أطفال الشرق، والتي كانت تبدو جميلة على الفتى الصغير الفخور، لدرجة أنه بدا وكأنه بدأ يدخل في إرثه. كما أحضرت سلالاً كبيرة من الفواكه الطازجة، البوميلو، الليتشي، وعيون التنين. وعدد لا يحصى من الجرار الحافظة للأسماك واللحوم والخضروات، التي كانت من أطباق تشان–كينغ المفضلة عندما كان صبياً في المنزل.

كانت مدام ليانغ تحب التسوق، مثل أي امرأة صينية. برفقة ابن عمها والخادمات، ذهبنا من تاجر الحرير إلى بائع الخزف، ومن صانع النحاس إلى نساج السجاد، نجمع الكنوز. على الرغم من أنها كانت تجري معظم مفاوضاتها من خلال ابن عمها، إلا أنها كانت تساوم بحزم وحس قوي بالقيمة مما أثار إعجابي كثيراً. في محلات الحرير، اشترت الساتان المطرز بشكل رائع والحرير المزركش، وجعلتني أختار النمط الذي أريده لنفسي. على الرغم من أنها حافظت بعناية على السمات المميزة لزي مقاطعتها، إلا أنها كانت مهتمة جداً بأساليب شنغهاي وفحصت خزانة ملابسي بشكل نقدي، ولاحظت الأكمام القصيرة ذات الأكمام الداخلية الضيقة والتنانير ذات الطيات السبعة، وليس خمسة، كما في كانتون، على كل جانب.

على عكس الاعتقاد الغربي الشائع بأن الموضة لا تتغير أبداً في الصين، فإن المرأة الصينية دقيقة بشكل صارم فيما يتعلق بالطول والاتساع، أو الضيق الدقيق لمعاطفها وتنانيرها وسراويلها. إنها دقيقة بعناية بشأن عرض الأشرطة المائلة أو الضفائر أو الدانتيل التي تستخدمها للتزيين، وعدد وترتيب الأزرار، وشكل وارتفاع الياقة. كل هذه التفاصيل تختلف بشكل

استبدادي من موسم إلى آخر، تحت إشراف شنغهاي. كما تفعل بعض ميزات الموضة لدينا تحت قيادة نيويورك أو باريس. علاوة على ذلك، وبخلاف فصولنا الأربعة، فإن عشاق الموضة في الصين يأخذون في الاعتبار ثمانية فصول، لكل منها أسلوبه، ووزن ملابسه المناسب.

في المنزل، كانت والدتي تخيط كثيراً، مستخدمة يديها بأناقة وكفاءة عالية على الرغم من الأظافر الطويلة المنحنية في يدها اليسرى. أثارت ماكينة الخياطة الأمريكية لديها إعجابها. كان لديها ماكينة يدوية ممتازة في المنزل، كما أوضح تشان-كينغ، لكن ماكينتي تعمل بدواسة، وأرادت تجربتها. أمسكت بالقدمين الصغيرتين ذات الحذاء الزاهي بيدي ووضعت واحدة للأمام والأخرى للخلف على الشبكة الحديدية. وحركتهما بشكل جيد بالتناوب، وخيطت عدة طبقات بحماس.

ذهبنا أنا وتشان-كينغ ووالدته إلى المقاهي الصينية معاً، وكانت مدام ليانغ سعيدة لرؤيتي أستخدم عيدان الطعام بسهولة وأتمتع بذوق حقيقي في الطعام الصيني. كنا نستمتع بأنواع مختلفة من الأطباق الفاخرة: الدجاج والبط بالبهارات، زعانف القرش، حساء عش الطيور مع بيض الحمام، وهو طبقي المفضل، الأعشاب البحرية وبراعم الخيزران، الكاكي المسكر، بذور اللوتس وحلوى الدخن مع شاي اللوز.

في إحدى المرات، في مقهى حديقة على السطح، حيث كنت أرتدي ملابس أمريكية، أثار استخدامي لعيدان الطعام اهتماماً كبيراً بين المجموعات المجاورة من رواد المطعم، ووصلت إلينا تعليقات عابرة، لأن الصينيين دائماً ما يكونون سعداء لرؤية الأجانب على دراية بعاداتهم. قالت امرأة شابة بلهجة زوجي الأصلية: "لا شك أنها سيدة تبشيرية". عند سماعها وفهمها، قالت والدتي على الفور، بنبرة واضحة ولطيفة: "ابني، ربما ترغب زوجتك في تناول بعض الطعام الأمريكي الآن". ترجم لي تشان-كينغ كل من التعليق والاقتراح، وشعرت بالسعادة لمعرفة أن والدتي الصينية على الأقل، لم تكن تخجل، في مكان عام، من الاعتراف بابنتها الأمريكية.

كانت والدتي تحب المسرح، وبما أن شنغهاي كانت تضم بعض المسارح الممتازة، قمنا بتنظيم عدة حفلات خلال إقامتها. كان المسرح شبه الدائري الكبير الذي شهدنا عليه مسرحية تاريخية قديمة شهيرة، مزينا بزخارف مطرزة بشكل رائع، ومغطى بسجادة بكين سميكة ضخمة الحجم، ومضاءة بشكل لامع بالكهرباء، مثل المسرح بأكمله. ارتدى الممثلون الملابس الرسمية والعسكرية الفاخرة من سلالة قديمة. كما في مسرح العصر الإليزابيثي، كانت أدوار النساء تؤدى من قبل رجال، الذين حققوا تأثير الأقدام المقيدة عن طريق أحذية مصممة بذكاء. وجدت الطبول والأجراس الصاخبة مرهقة قليلاً في بعض الأحيان، والاستعاضات الخام للممتلكات غير متناسقة إلى حد ما مع الزخارف والأزياء الرائعة. ولكن، بما أنني كنت على دراية بالقصة، فهمت الإجراءات واستمتعت بها بشكل واضح، مما أثار دهشة والدتي من جديد، كما أخبرني تشان-كينغ لاحقاً. جلسنا في صندوق الشرفة الخاص بنا، فوق الصفوف الغامضة من المقاعد السفلية المليئة بجمهور غير مستقر، من الرجال والنساء والعديد من الأطفال في أذرع مربياتهم. على الدرابزين الأمامي الواسع لصندوقنا كان هناك إبريق الشاي الذي لا مفر منه، مع مساحة للفواكه، قصب السكر، بذور البطيخ، أو أطباق اللحم والأرز التي نرغب في شرائها، من التنوع اللامتناهي الذي يقدمه الأولاد المتحمسون، بقبعات مستديرة وأردية قطنية زرقاء. من حين لآخر، كان الحاضر يأتي بإبريق شاي ضخم، لإعادة ملء إبريق الشاي الخاص بنا، ومرة واحدة قدم لنا المناشف الساخنة المعتادة لتنظيف الأصابع اللزجة. لوح تشان-كينغ بها بعيداً بحماس. قال لي: "عادة مروعة. غير صحية. كيف يمكنهم فعل ذلك؟"وأضاف شيئاً من هذا القبيل لوالدته بالصينية. نظرت إليه بفهم، مع ومضة صغيرة من الحكمة الفائقة في عينيها. لكنها لم ترد.

أعجبت مدام ليانغ كثيراً بطفلنا ويلفريد، الذي كان يمتلك بحلول ذلك الوقت مفردات صينية جيدة، وكان دائماً يستخدمها عند التحدث إلى مربيته. كان طفلاً وسيماً، ذو ملامح صينية تقليدية، ساحر في أسلوبه، محباً جداً لمربيته وجدته المتسامحة. كانت مدام ليانغ تأخذ ذقنه بين يديها وتدرس ملامحه باهتمام، وهي تومئ برأسها موافقة. ثم كانت تمسح رأسه الأسود المستدير وتعطيه بذور البطيخ أو اللوز من جيبها. كان ويلفريد يستخدم مزيجاً غريباً من اللهجات، مزيجاً من لغة الماندرين واللهجة المحلية لشنغهاي، مع لمسة من الكانتونية من مربيته. بدأت مدام ليانغ بتعليمه لهجتها الخاصة بصبر.

عندما انتهت زيارتها، قالت لنا: "هذا منزل صيني، به زوجة صينية. كل شيء صيني. لم أكن لأصدق ذلك دون أن أراه، لأنني كنت أعتقد أن زوجتك امرأة غربية. أنا سعيدة."وأخبرتنا مرة أخرى أننا يجب أن نأتي لزيارتها، لأنها بحاجة إلينا.
كان والد تشان-كينغ، عضواً في شركة قديمة وراسخة، تعمل في تجارة الاستيراد والتصدير في الفلبين. غائب، يعتني بأعماله أو يتبادل الزيارات مع أصدقائه من نفس عمره ومرتبته. كانت عودته إلى المنزل بمثابة عطلة. وإدارة المنزل كانت تعتمد على مدام ليانغ.
بينما كانت تتحدث، أدركت من تعابير وجهها، ومن إجابات تشان-كينغ، ومن كل ما أعرفه عن الحياة الأسرية الصينية، أننا جزء من تلك العشيرة ويجب أن نكون كذلك دائماً. شعرت بإحساس بالتماسك الذي أشعر به الآن مع عائلة زوجي. لم نكن منفصلين عنهم، ولا يجب أن نكون.
بعد مغادرة والدتي، قال لي تشان-كينغ شيئاً من هذا القبيل، مستشهداً بما قالته عن كوني لست غربية. قال لي: "لكني أحب أن تكوني غربية بهذا المعنى، نحن الاثنان لدينا رفقة وحرية ومساواة في حبنا. هذا ما يجعلني أكثر سعادة".
قبل أن نغلق المنزل في شنغهاي ونغادر إلى التلال الجنوبية، ولد ابننا الثاني، ألفريد. سألتني امرأة أمريكية، عندما كان عمره حوالي ستة أسابيع، إذا كنت أشعر بالاغتراب عند رؤية الوجه الشرقي الصغير على صدري. أجبت ببساطة وبصدق: لا. زوجي لم يكن غريباً عني بأي شكل من الأشكال. فكيف يمكن لطفلنا أن يكون كذلك؟
قدمت ولادته لي عذراً مرحباً به للبقاء في المنزل بهدوء لفترة قصيرة. حاولت الآن أن أتعلم، في نفس الوقت، كل من لغة الماندرين ولهجة مقاطعة تشان-كينغ، وهي طريقة دراسة أعاقتني في البداية. لكن زوجي كان معلماً مشجعاً، وبدأت باستخدام معرفتي الجديدة بتردد، مجربة ذلك غالباً على ابني ويلفريد، الذي كان اللغوي الحقيقي في العائلة. كان يأخذ صينتي على محمل الجد. لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن تشان-كينغ، الذي كان مستمتعاً جداً بنبرتي.
مع اقتراب نهاية العام، قررت أن أتولى منصباً كمدرسة للغة الإنجليزية والتاريخ في مدرسة ثانوية للبنات الصينيات. كان تشان-كينغ متفاجئاً عندما أخبرته أنني أرغب في التدريس، لكنه لم يعترض، وتابع باهتمام تقدمي خلال العام. أحببت التدريس. وأحببت أكثر الفتيات في فصولي. بشكل جماعي وفردي، وجدتهن يستحقن كل الجهد بروحهن وعقولهن. لا أستطيع أن أصف كم بدت لي شابات الصين جميلات. بدأت أتوق لابنة، وعندما اكتشفت، مع اقتراب نهاية الفصل الدراسي الثاني، أنني ربما أحقق رغبة قلبي، أدركت أن زوجي يشاركني هذه الرغبة.
في أوائل الخريف، كتبت والدتي وطلبت منا القدوم إلى الجنوب لفصل الشتاء. كما أعربت عن أملها في أن يولد الحفيد القادم في مقاطعتها. كان تشان-كينغ قوياً بشكل مشجع لأكثر من عام، لكنه كان دائماً يجد شتاء الشمال قاسياً. قررنا أن الوقت قد حان لتنفيذ وعدنا بزيارة المنزل العائلي. حصل تشان-كينغ على إجازة لمدة ستة أشهر.
في غضون عشرة أيام، أغلقنا أعمالنا مؤقتاً، وودعنا الخدم، باستثناء المربية وآه تشينغ المخلص، وجمعنا صناديقنا وودعنا أصدقائنا. كانت الأوراق تتساقط في الشارع، والنباتات تذبل عند الحواف في الشرفة المشمسة. والرياح كانت تهب بصوت حاد تحت الأسقف. أصبح تشان-كينغ شاحباً وبدأ يسعل مرة أخرى. من برودة شتاء شنغهاي القاسية، هربنا إلى دفء الجنوب اللطيف.
بسفينة بخارية كبيرة، بدأنا رحلة كانت عادة قصيرة. ولكن، وفقاً لجدول زمن الحرب، كانت التغييرات والتأخيرات هي القاعدة. بعد ثلاث تغييرات غير متوقعة وتأخيرات مماثلة، وصلنا إلى ميناء على حدود مقاطعة زوجي. توقفنا هناك، ونوينا المتابعة بعد ثلاثة أيام بواسطة السفينة الصغيرة المتعبة، التي كانت تصدر أصواتاً عالية عند الرصيف. تفرغ الفواكه المجففة والأصباغ، وتحمّل الأرز والقماش وخشب الصندل. ولكننا لم نكمل الرحلة، كما حدث. بدلاً من ذلك، قامت طبيبة صغيرة مبتسمة وذات كفاءة، ترتدي الزي الجنوبي وتمتلك حكمة عملية غريبة في الأمور الطبية، بمساعدتي في مستشفى محلي عند ولادة ابنتنا أليشيا.
في صباح شتوي رمادي بشكل غامض، بعد عشرة أيام، وقفت سفينتنا الصغيرة، لأنني أقنعت تشان-كينغ بالسماح لي بالسفر بعيداً عن الميناء، وجاءت السامبان (قوارب صغيرة) لملاقاتنا. مثل أسماك عملاقة، تتراقص وتتمايل على الأمواج،

تقدمت هذه السامبان بعيونها الكبيرة المرسومة على جانبي المقدمة، ومؤخرتها المنحنية بشكل غريب نحونا في أسطول احتفالي. يبحر بها تجديفاً رجال نحيلون ذوو عضلات مفتولة، يرتدون ملابس قطنية زرقاء باهتة. كنت سعيدة جداً ومفعمة بالحيوية، بسبب أشعة الشمس اللطيفة التي اخترقت الضباب بينما كنت أنزل بمساعدة تشان–كينغ إلى أحد هذه القوارب.

كان الميناء مزدحماً بالقوارب الصغيرة. قوارب مسطحة القاع أو قوارب الأمتعة بالإضافة إلى الجونك (سفن صينية تقليدية)، التي كانت أشرعتها البنية المربعة تتأرجح بصوت صرير في الرياح. ارتفعت فوقنا سفينتان حربيتان صينيتان، بجوانبهما الضخمة المطلية باللون الرمادي.

بعيداً عنا، كانت جزيرة لا يزيد طولها عن ميل تظهر لنا ملامحها غير المنتظمة، كتلة طويلة من الصخور الرمادية العملاقة تبرز فجأة من بحر لامع. بينما كنا نُجدف نحو البر الرئيسي، كنا قريبين بما يكفي من الجزيرة لنرى بوضوح المنازل ذات الأسقف المغطاة بالقرميد والمحاطة بشرفات مقوسة. تتكرر مرة تلو الأخرى، في خطوط طويلة متموجة تعطي تأثيراً جميلاً يشبه الدانتيل. كانت الجزيرة مظللة بأشجار في أوراق الشتاء، لا الخضرة اللامعة للصيف، ولكن الأخضر الرمادي والبني الفاتح لشهر نوفمبر. من خلال هذا الستار المتقطع، كانت جدران المنازل تلمع باللون الأزرق الباهت والوردي المرجاني والرمادي الفاتح. كانت نباتات الصبار الشائكة تنتصب بين الصخور المستديرة، وفي كل مكان كانت زهور البوينسيتيا الحمراء تضيء التلال ببقع من الألوان الزاهية. أحببت هذه الجزيرة على الفور. قلت لـ تشان–كينغ: "هذه هي جزيرتنا المباركة، حيث سنعيش عندما نكبر".

عند الرصيف، صعد آه تشينغ لاستدعاء حاملي الكراسي المحمولة، وسرعان ما كنت محمولة بسرعة على بعد بضعة أمتار أمام كرسي زوجي. كنت ممتلئة بسعادة غامرة لكوني في مقاطعة تشان–كينغ، قريبة جداً من القرية التي عرفها كطفل صغير. بفضول هائل، كنت أختلس النظر من خلال أطراف الستائر الشفافة من الداخل. كنا نمر عبر البلدة التي تقع على حافة الماء، مكان صغير مفتوح ومشرق، حيث كانت المنازل الصغيرة ذات الأسقف المنحنية المغطاة بالقرميد تلتصق بالأرض.

مررنا عبر الشوارع المتعرجة، التي كانت في الواقع مجرد مسارات عريضة، بوتيرة ثابتة. تركنا أطراف البلدة المتداعية وبدأنا في الصعود إلى التلال. رفعت الستائر قليلاً واغتنمت الفرصة للنظر بحرية. انتابتني موجة من المشاعر، كنت أرغب في البكاء من الفرح في هذا العودة إلى الوطن، لأنها كانت عودتنا الحقيقية معاً. وشعرت بمشاركة سرية في كل الحياة التي عرفها زوجي هنا.

صعدنا عبر المسار الضيق الملتوي نحو التلال، التي كانت مغطاة بضباب كهرماني دخاني. كانت هناك قطع صغيرة من الأرض المزروعة متناثرة على طول الطريق الصاعد، بعيداً عن المساكن، مليئة بالنباتات النامية. حيثما وجد الناس بقعة خصبة ومسطحة على التلال الصخرية، التي جردت من الأشجار ولم يبقَ فيها سوى العشب، قاموا بزراعة خضرواتهم. هذه البقع الصغيرة من الألوان، التي استخرجها البستانيون المقتصدون من التربة، التي غسلتها الأمطار في جيوب التلال، أضافت لمسة احتفالية ومرحة إلى المنظر الشتوي، الذي كان بخلاف ذلك بنياً وجافاً. فكرت بخفة في عملاق جاد يرتدي باقات الزهور الاحتفالية. كانت التلال تمتد بعيداً بشكل هائل، حتى أصبحت ظلالاً أمام اللون البرتقالي الباهت والبنفسجي الرمادي لشمس الصباح التي كانت تكافح للاختراق عبر السحب. كانت الجسور الحجرية القوية المنحنية بشدة تصنع لنا مساراً فوق الجداول المتكررة التي كانت تتدفق نحو الوادي.

هنا وصلنا إلى القرية العائلية لعائلة زوجي. كانت القرية مدمجة ومتعددة الأسقف، تقع على جانب التل، تبدو معقدة وحتمية كمجموعة من أعشاش الطيور، وكأنها جزء طبيعي من الأرض، كما لو كانت قد نبتت من بذور مزروعة. صفوف من الجدران كانت تمتد على طول الشارع الرئيسي. كان هناك عدد قليل من الناس يتحركون حتى الآن، وكانت الأبواب مغلقة في جميع المنازل المنخفضة الأسقف، المصنوعة من الجص والحجر.

وُضعت كراسينا أمام بوابة عالية مقنعة في جدار رمادي حجري. طرق آه تشينغ الباب. فُتحت البوابات، وخرج الخدم

مسرعين، يرافقهم ثلاثة كلاب تشاو سوداء تقفز، كانت تنبح بتحدٍ مجنون، حتى تحدث إليها تشان-كينغ وحول تهديدها إلى ترحيب فرح.
دخلنا فناءً واسعاً وعبرنا حديقة رائعة، واحدة من أجمل الحدائق التي رأيتها في الصين. كانت بحيرة اصطناعية تموج بهدوء، لا يزعجها سوى الأسماك الذهبية السريعة. كانت أشجار الغار والمغنوليا تظلل الممرات. وغابة من الخيزران تتراقص وتعكس ظلالها في الماء عند حافة البحيرة.
ساعدني تشان-كينغ على النزول من الكرسي، ومررنا معاً إلى القاعة الرئيسية عبر الأبواب المفتوحة على مصراعيها. كانت مدام ليانغ، التي أُبلغت بوصولنا مبكراً، واقفة هناك، وأول نظرة لها، أعطتني إحساساً متجدداً بالعودة إلى الوطن. كنت على دراية غامضة بقاعة كبيرة، في الجزء الخلفي منها كان هناك مذبح عالٍ، مع أعمدة من الدخان العطري، ترتفع بشكل مستقيم أمام ألواح مكتوبة، وتماثيل لامعة تحت صناديق زجاجية. كان بريق التطريزات الذهبية والقرمزية على الجدار يشتت الظلام بأشعة من الضوء، مثل أشعة الشمس عبر منشور. رتبت الكراسي المصنوعة من الخشب الأسود المنحوت بشكل ثقيل، مع طاولات الشاي. والمقاعد ذات الأسطح الرخامية مع وسائد مزركشة ملونة حول الغرفة.
مررنا عبر هذه القاعة الرئيسية إلى شقة مدام ليانغ، حيث أُعطيت كرسياً، وجلست، متذكرة فجأة أنني كنت متعبة جداً.
جاء أفراد آخرون من العائلة، أقارب بعيدون وأبناء عمومة، وضيوف، جميعهم من النساء، وتم تقديمي لهم. قامت زوجة الابن الثاني، بأول التحيات نيابة عن العائلة. كانت شابة جداً — في السابعة عشرة فقط — وكانت ببراءة تحمل طابعاً آخر. مما جعلها تبدو بين ربات المنازل الناضجات، المديرات الذكيات والعمليات لمنازلهن وعقارات أزواجهن، كفرع من أزهار الخوخ. كانت ترتدي زيّاً احتفالياً باللونين الأخضر الفاتح والبنفسجي، مع أحذية مطرزة على قدميها الصغيرتين وغطاء رأس مطرز، يزين شعرها الأسود اللامع، ويحيط بوجهها البيضاوي الخجول المبتسم، مع عيونها السوداء العميقة، وهي تحمل صينية مطلية وتقدم لنا شاياً حلواً، في أكواب من أرقى الخزف. مع قواعد وأغطية فضية وملاعق صغيرة ذات رؤوس على شكل زهور.
ثم تم تكرار مراسم الشاي الصغيرة الجميلة من قبل أفراد مختلفين من العائلة، بينما تم تقديم الحليب الساخن والكعك للأبناء الصغار. تجمعت مجموعة متحمسة حول الابنة الصغيرة الجديدة، التي كانت لا تزال نائمة بسلام.
كانت سيدة ضئيلة نشيطة ومليئة بالحيوية، في نفس عمر مدام ليانغ، تميل نحوي بابتسامة ساخرة، وأومأت برأسها الجميل المرح بشكل مؤكد عندما قدمتها والدتي كمدام تشاو. كانت ترتدي ملابس فاخرة بألوان زاهية، على عكس ملابس والدتي البسيطة، وكانت مرحة بقدر ما كانت مدام ليانغ جادة، وكانت تتنقل على قدميها الصغيرتين "الزنبق الذهبي"التي بالكاد تُرى، بطاقةٍ لم تفقد معها أناقة "مشيتها التي تشبه الصفصاف".
ولكن الأزياء متعددة الألوان، والسرير الكبير المغطى بالستائر على جانب واحد، والأصوات كلها، بدت فجأة بعيدة. وبينما كنت أترنح، مبتسمة بإصرار، سمعت صوت زوجي يقول: "والدتي تعتقد أنك متعبة، لذا ستقودك هذه المرأة إلى غرفتك، حيث يجب أن تستلقي وتستريحي".
بعد فترة، بينما كنت مستلقية أستريح، وأليشيا نائمة على ذراعي، على السرير ذو الستائر الأرجوانية والبطانيات البيضاء الناعمة، دخل تشان-كينغ بهدوء إلى الغرفة.
قال: "هل تشعرين بالراحة كما تبدين؟"وعندما أومأت بنعاس، لمس صندوقاً من الكعك.
"هذه أتت بها مدام تشاو، السيدة الصغيرة النشيطة هناك. هل تعلمين؟ —تردد للحظة— كانت ستكون حماتي، لو لم أصر على والدتك بدلاً منها". ثم قرص خدي بلطف.
صرت مستيقظة تماماً. سألت: "السيدة الصغيرة التي تشبه الطيور هناك، أم لي-ينغ؟ أين لي-ينغ إذن؟"
أجاب تشان-كينغ: "لم يخبروني بأي شيء مباشرة. لكنني استنتجت من عدة محادثات مباشرة جرت في وجودي أن مدام تشاو قد عادت للتو من منزل ابنتها في سنغافورة. تخيلي فقط: لي-ينغ الصغيرة متزوجة أيضاً، ولديها ثلاثة أطفال، فتاتان وصبي".

قال زوجي الصيني، برضا ساحر، وهو يضع يده على يدي وينحني ليُقبّل وجه أليشيا الوردي النائم: "أعتقد أن ترتيبنا أفضل بكثير. يجب أن يكون الأبناء أكبر سناً، عندها تُقدّر البنات بشكل صحيح".
عند الظهر، بعد ساعة من النوم الهادئ، أيقظني تشان-كينغ مرة أخرى، الذي كان واقفاً بجانب خادمة تحمل صينية.
جلست. وأنا أستعد للنهوض: "كنت أتوقع أن أكون بالخارج لتناول الغداء".
بدا تشان-كينغ مضطرباً. قال: "ابقِ حيث أنتِ. كانت والدتي للتو توبخني لأنني سمحت لكِ بالسفر مع طفل عمره عشرة أيام. وكأنني أستطيع فعل أي شيء حيال ذلك. أخبرتها، وألقي باللوم على حواء بأكثر الطرق المسيحية قبولاً. إنها تعجب بروحكِ، لكنها تعتقد أنه من أجل صحتكِ، يجب أن تستريحي أسبوعين على الأقل".
استلقيت بخضوع. "حسناً. الطاعة هي شعاري".
وللفترة المحددة، بقيت في غرفتي الجميلة، كل حواسي تستجيب بعمق للحياة الجارية في المنزل الصيني. صوت الجرس الصغير الذي يستدعي الخدم، الضحكات التي تأتي خافتة أو واضحة عندما تُفتح أو تُغلق أبوابي. صوت الخطوات الخفيفة على الممر، بريق الثياب الوردية أو الزرقاء اللامعة لزوجة الابن الثاني عندما تدخل لتستفسر عن حالتي أو تجلب لي بعض الأطباق الجديدة التي تم شراؤها من أجلي. دخان البخور من المذبح يطفو في الغرفة بين الحين والآخر، برائحة حلوة لاذعة تثير ذكريات ومشاعر غامضة. كل شيء في المنزل، الستائر، الملابس، الأثاث، كان مشبعاً بهذه الرائحة. ممزوجة برائحة مرّة، تنتج عن العمر الطويل، وممزوجة بجودة غبارية مهيجة. أصبحت هذه الرائحة تعني لي الصين، وهي أثمن من جميع العطور الأخرى في العالم.
لكنني في اليوم الثالث قلت محتجة عندما تم تقديم وجبتي الرابعة لي في وقت مبكر من بعد الظهر: "تشان-كينغ، الحياة ليست سوى طعام".
أجاب: "لكن الكميات صغيرة. طريقة أفضل بكثير، ألا تعتقدين، من تناول وجبات كبيرة تفصلها ساعات طويلة؟"
في الصباح الباكر، كانت الخادمة الشابة المخصصة لي تجلب وعاءً من الحليب الساخن والبسكويت. في شقتنا، في الساعة الثامنة والنصف، كانت تقدم الإفطار، الذي يتكون من الأرز المسلوق الطري (الكونجي) مع أنواع مختلفة من الأطباق المالحة والحلوة والحامضة. في الساعة الحادية عشرة، كان هناك حساء السلحفاة أو مرق الدجاج. عند الظهر، كان يتم تقديم الغداء، الذي يتكون من أطباق لحم وخضروات، سمك وحساء، وأرز مسلوق جاف. كانت وجبتنا الخفيفة في منتصف الظهيرة تتكون من نودلز القمح أو دقيق الفول، أو ربما مجموعة متنوعة من الكعك الفاخر. كان الشاي، الذي يُحافظ على سخونته بواسطة غطاء سلة، دائماً متاحاً في كل غرفة. في الساعة السابعة، كانت العائلة تتناول العشاء، وبعد انتهاء الأسبوعين، انضممت إليهم، جالسة على الطاولة الأولى مع والدتي وزوجي. كان العشاء وجبة فاخرة، تتكون من عدة أطباق، مع الأرز في النهاية. وعند وقت النوم، كان يتم تقديم الحليب الساخن مرة أخرى، أو الكونجي الحلو، أو ربما شاي مصنوع من بذور اللوتس أو اللوز. كنت أتناول الطعام باستمرار. كنت أعتبر الطعام الصيني لذيذاً، خاصة في مقاطعة زوجي، المشهورة بأطباقها المقرمشة المقلية.
لكن تشان-كينغ كان يتوق إلى الأطباق الأمريكية. أعطيت الطاهي الرئيسي تعليمات مفصلة لإعداد الدجاج المقلي، السلطات الطازجة، شريحة اللحم مع الصلصة الإسبانية، وحتى الفطائر الأمريكية، وكان يستمتع بالمنتجات الأمريكية المعلبة، مع الزبدة، الجبن، المربى والخبز، التي كانت تُجلب بشكل متكرر من الميناء.
حدث أمر أثار الكثير من المرح، وهو عندما قدم تشان-كينغ لعائلته سر وتاريخ طبق "تشوب سوي". النكتة الغنية حول هذا الطبق الصيني "المصنوع في أمريكا"تنتشر في كل منزل يوجد فيه طالب عائد. في شنغهاي، سمعنا بضحك كيف أن الطاهي الحائر في مقهى Y.M.C.A. ذهب إلى إحدى السفن العابرة للمحيط الهادي الراسية في الميناء، ليتعلم من الطاهي الرئيسي على متنها، طبق "تشوب سوي"الذي يطلبه جميع زبائنه من الطلاب العائدين. الآن، مع ذكريات أنشطة النوادي الجامعية القديمة التي تحفزنا، ومع طاهٍ ماهر لتنفيذ تعليماتنا، قدمت أنا وتشان-كينغ إلى المنزل العائلي هذا الطبق الأكثر عرضة لسوء الفهم في العالم. وافقت العائلة على أنه، على الرغم من أنه مألوف بشكل غامض، إلا أنه لم يكن مثل أي شيء جربوه من قبل، وقرروا بدون أي اعتراض أنه أفضل من الدجاج المقلي، وشريحة اللحم الإسبانية أو الفطائر.
في هذا الوقت، عاد أخو زوجي، لين-كينغ، إلى المنزل لفترة قصيرة. قررت من الصور أنه يشبه والده، الذي كان لا يزال

غائباً. بدا لين-كينغ وزوجته مدام سبرينغ تايم، متوافقين وسعداء، على الرغم من أن الزواج كان مرتباً من قبل عائلتيهما، ولم يريا بعضهما البعض قبل مراسم الاحتفال. قررت أن العادة القديمة لها الكثير من المزايا، بعد كل شيء بالنسبة للآخرين، وقلت ذلك لزوجي، مضيفة: "عندما يكبر أطفالنا، يجب أن نجعلهم جميعاً يتزوجون من صينيين". نظر إلي تشان-كينغ لفترة طويلة في صمت ثم قال بتنهدة فكاهية: "ماذا عن مثال والدهم، عزيزتي؟".

بما أن لغتي الصينية كانت لا تزال أكاديمية وغير مدربة، في الأمور الأكثر أهمية مثل النبرة والتعابير المحلية، فلم أتمكن من التحدث مع العائلة. وعلى مائدة العشاء وفي شقة والدتي، كنت صامتة ومتواضعة، ولبقة مثل مدام سبرينغ تايم نفسها. كانت مدام سبرينغ تايم تقدم الشاي الرسمي لضيوفنا الكثر في صمت تام، مع ابتسامة حلوة وثابتة على زوايا فمها الأحمر. كنت أراقبها باهتمام شديد، لأنها كانت تقوم بدور زوجة الابن الأول نيابة عني.

كانت آليات الحياة تسير بسلاسة العادة الطويلة والانضباط الكامل. كانت الوجبات تُقدم، والشقق تُحافظ على ترتيبها الدقيق، والأطفال يُعتنى بهم من قبل مجموعة من الخدم المدربين بدقة من قبل سيدة صارمة، تعرف بالضبط ما تريد. كانت أيامنا تُترك حرة لممارسة المجاملات الصغيرة، وتبادل الاهتمامات الجميلة، والعناية بالمذبح العائلي.

من الطقوس التي كانت تتم أمام هذا المذبح في أوقات مختلفة، أن زوجي كان يحافظ على مسافة بينه وبين زوجته وأطفاله. لم يكن يُطلب أو يُتوقع منه أن يفعل غير ذلك، تماماً كما كان حضورنا في الكنيسة الصغيرة مقبولاً دون سؤال. في أوقات أخرى، كانت لدي فرصة واسعة لدراسة المذبح والاستمتاع بجمال النقوش الضخمة، المباخر الفاخرة، الشمعدانات، والتطريزات الرائعة. كانت تماثيل البورسلين لآلهة الرحمة البوذية في دورها كمانحة الأبناء، الموضوعة داخل صندوق زجاجي كبير، تثير إعجابي بسبب تشابهها الملحوظ مع بعض التماثيل الكاثوليكية. لكن الألواح العائلية كانت تهمني أكثر، والاحترام الذي كنت أكنه دائماً للأشياء المقدسة للآخرين، كان في هذه الحالة ممزوجاً بمشاعر شخصية عميقة: الخصائص المختلطة لهؤلاء الرجال والنساء، الذين رحلوا منذ سنوات عديدة. كانت تعيش في الرجل الذي كان زوجي، تيارات حياتهم كانت تنبض بحرارة في عروق أطفالي. ربما كانت بعض البصيرة العميقة التي اكتسبوها بعد الموت، تمكنهم من معرفة كم كنت أقر بفضلي عليهم بصدق، وكم كنت أتمنى ألا يخيب أطفالي أملهم في إرثهم.

بمساعدة توجيهات تشان-كينغ وملاحظاتي الشخصية، تعلمت بسرعة الروتين اللطيف للمنزل. في الساعة العاشرة كل صباح، كنت أقدم نفسي عند باب شقة مدام ليانغ وأجلس معها لعدة ساعات، غالباً قبل الغداء، وحتى وقت الشاي، إذا أشارت إلى رغبتها في صحبتي. إذا كان الطقس جميلاً، كنا نسير في الحديقة، وهي تتكئ بخفة على ذراعي، وعصاها تدق على الحجارة. في بعض الأحيان، كان يتم تقديم الشاي هنا، مع انضمام الأطفال الصغار إلينا لتناول الحليب الساخن والكعك الحلو.

استغرقني الأمر عدة أيام لتحديد أفراد الأسرة وعلاقاتهم الصحيحة، حيث كان هناك ثلاثون شخصاً مجتمعين في ذلك المجمع الكبير المنخفض الأسقف، والمتعرج خلف الجدار العالي المحيط. كان معظمهم من النساء، وثلثاهم من الخدم. كانت النساء القريبات الهادئات ذوات الأسلوب اللطيف، يقضين معظم وقتهن في شققهن الخاصة. شخصية مدام ليانغ القوية، الصامتة والملزمة، كانت تخفف من ألوان جميع الشخصيات حولها. كانت صديقتها، مدام تشاو، مصدر راحة كبير لها، لأنها لم تكن تأخذ أي شيء على محمل الجد. كانت مدام ليانغ تضحك معها أكثر من أي شخص آخر. بينما كن يطرزن بجد، كن يتحدثن، وكنت أستمع إلى كلامهن الموسيقي بنبراته الجنوبية اللطيفة وإيقاعاته المتعددة النغمات.

كنت أفكر، بينما كنت جالسة في كرسي مريح، أرضع أليشيا الصغيرة، مع إبريق شاي بجانبي، أن مدام ليانغ، في سريرها الفاخر المنحوت باللونين الأسود والبرتقالي، المحاط من ثلاث جهات بألواح من الحرير المزين. ومغطى من الأمام بستائر حريرية، ممسوكة بأشرطة مزركشة، كانت حلقة في سلسلة الأشياء الأبدية. كانت قد دخلت المنزل تماماً كما فعلت "النساء الجديدات"قرناً بعد قرن، وعاشت حياتها دون تساؤل وفقاً لتعاليمهن ومثلهن. كان هناك كرامة ضخمة وخالدة حولها وهي تخيط وتتحدث عن أمور بسيطة. في وجودها، شعرت بأنني شابة وسهلة وغير ثابتة.

كنت أناقش هذه الأمور مع تشان-كينغ في ظلام الليل، عندما يكون المنزل كله صامتاً. كان مهتماً بردود فعلي، مع

علمه أنها كانت نتيجة حب شخصي عميق لعائلته، وتعاطف مع كل فرد فيها. روحياً، كان تشان-كينغ أيضاً متعاطفاً مع عائلته. وعملياً، حسناً، كما قلت، كانت هناك لحظات يتوق فيها إلى الطعام الأمريكي. وكان أول عمل له في المنزل هو إزالة ستائر السرير من شقتنا.

تمت إزالتها، ولم يُقال شيء. كانت هناك روح رائعة من المجاملة والتسامح تسود الحياة الأسرية، مع غياب تام لتقاطع الانتقادات الشخصية التي تسمح بها حريتنا الغربية في الكلام. ليس أنه لم تكن هناك تيارات خفية، عداوات حميمة هنا وهناك، تضحيات شخصية وأحزان. لكنها لم تكن أموراً معترفاً بها، لأن في الحياة الصينية يتم التخلي عن المطالبات الفردية، بشكل دائم لصالح سلام العشيرة ورفاهيتها. كانت هناك سلطة واحدة، وكانت متمثلة في مدام ليانغ. مثل هذا النظام يعزز الانسجام ويحافظ على مؤسسة الأسرة، التي تقوم عليها الصين بأكملها.

بدون بذل جهد واعٍ، أصبحت أنا نفسي مشبعة بهذه الروح، لدرجة أنه عندما جاءت استدعاءات الحكومة لـ تشان-كينغ للتوجه إلى بكين في بداية العام الجديد. كتمت حزني وقلت: "كم هذا رائع لنا جميعاً، تشان-كينغ متى ستذهب؟"

كنا في الأسبوع الأخير من العام القديم، وبإلحاح من مدام ليانغ، أخّر زوجي مغادرته (كما سمح الاستدعاء)، حتى يتمكن من الاحتفال بأجمل العطلات وسط عائلته. كانت روائح الطهي اللذيذة تنتشر في كل مكان، وتم تجهيز ملابس جديدة للجميع، وبدأت الوجوه تتلألأ بالسعادة.

في إحدى الأمسيات، بعد زيارة لوالدته، جاء تشان-كينغ إليّ وهو يضحك. قال: "والدتي تذكرني أنه لمدة ثلاثة أيام، من المعتاد أن تقوم الخادمات، عند كنس الأرضية، بتجميع الغبار بعناية في زاوية بدلاً من إلقائه خارجاً، خشية أن يتم إلقاء حظ العائلة معه. لكنها تقول بالطبع إنها مجرد خرافة قديمة، وإذا أردتِ يمكنكِ أن تخبري الخادمة بإزالة الكنس كالمعتاد".

ضحكت أنا أيضاً. ثم قلت: "أخبر والدتي أننا سنقوم بدورنا في الحفاظ على الحظ الجيد في العائلة".

"لمدة ثلاثة أيام أيضاً، لا يُسمح لأحد أن يتحدث بكلمات قاسية أو توبيخ. وبالتالي، سيوقف زوجكِ الصيني المستبد عن إلقاء المحاضرات على زوجته الأمريكية، التي من المؤكد أنها ستحتاج إليها".

نظرت إلى عينيه، المتلألئتين بمرح لا يمكن كبته، وفجأة قبلتهما وأغمضتهما، بينما كانت عيناي تدمعان. همست:

"أوه، عزيزي، أنت مجرد طفل صغير يعود إلى المنزل مرة أخرى، على الرغم من الخيوط الفضية".

مسحت خصلات شعره الأسود، التي كانت مرشوشة بالفعل باللون الرمادي. قلت:

"تشان، أنا أحب السنة الصينية الجديدة".

حتى الآن، ما زلت أرى كل ذلك مرة أخرى. كان زوجي يرتدي ثوباً طويلاً وجليلاً من الساتان الأخضر الداكن بدون زخارف، كما هو معتاد على الموظفين الرسميين، بنطلوناً أخضر داكن، سترة قصيرة بنية اللون مبطنة بالفرو الناعم، قبعة ساتان سوداء وحذاء أسود. كان ويلفريد شاباً أنيقاً يرتدي ثوباً طويلاً من الحرير الأزرق المخضر، سترة مطرزة باللون الأخضر الداكن، بنطلونا أزرق وقبعة حمراء مزينة بخصلة. كان ألفريد السمين يرتدي سترة بنفسجية، بنطلون أحمر، مريلة برأس نمر باللونين الأحمر والأبيض والأسود، أحذية مطرزة وقبعة صغيرة متماسكة ملونة. وأليشيا، التي كانت العائلة بأكملها تحبها أكثر وهي ترتدي فساتينها الأمريكية المكشكشة البيضاء، ترتدي الآن سترة حريرية وردية وقبعة صغيرة رائعة باللونين الوردي والأسود، مما أضفى لمسة شرقية على ملامحها. كنت أرتدي أحدث تصميم لي من شنغهاي، من الساتان المزخرف باللون الأرجواني الفاتح والأسود. وكان الضيوف يأتون ويذهبون باستمرار، وكنا نقوم بزياراتنا في القرية. كان الهواء مليئاً بروائح التوابل، دبس السكر، اللحوم المحمصة، كعك البذور وحلوى الدخن، وأصوات المفرقعات النارية، الأجراس والأصوات السعيدة.

لكن كل ذلك انتهى. حين حان وقت مغادرة زوجي.

بخبرة صامتة، بدأ آه تشينغ في حزم الأمتعة. في غضون ثلاثة أيام، كان تشان-كينغ مستعداً للرحيل. كان يدربني على العبارات المنزلية التي سأحتاجها أكثر لفهم نفسي دون مساعدته. قررت مدام ليانغ أنه خلال غياب زوجي، سأتحمل منصبي كزوجة الابن الأولى. لم يكن لدي أي قلق بشأن الواجبات الدقيقة والمتعبة التي ستقع على عاتقي كرفيقة مقربة

لوالدة زوجي، لأنني كنت أحبها. لكنني لم أكن متأكدة من لباقتي أو براعتي، وشعرت بالتوتر الشديد عند التفكير في مستقبلي القريب.
بعد الرفقة المستمرة لشهور، كان فراق تشان-كينغ مؤلماً جداً بالفعل. كان يدخل ويخرج من شقتنا، يتحرك حول المنزل بطاقة لا تهدأ، يرتب التفاصيل النهائية. أخيراً جاء ووقف بجانبي. همس: "ودعيني الآن، عزيزتي. بعد ذلك في الخارج لن تكون لدينا فرصة". أمسك بي وقبلني بمشاعر عميقة، والدموع في عيني ترفض أن تكتم بعد الآن.
توسل: "لا تبكي. لا تبكي، وإلا لن أستطيع تركك".
ثم رفع وجهي وجفف دموعي بمنديله وقال بجدية: "ابتسمي لي". وابتسمت.
عبرنا إلى شقة والدته، وخرجت، والدموع على خدي لم تجف. انضم إلينا بقية العائلة، ورافقناه إلى المدخل ثم إلى البوابة، التي كانت مفتوحة، ويكاد يسدها الكرسي المحمول المنتظر. كان تشان-كينغ يرتدي الزي الصيني، وبينما كان واقفاً بجانبه تجاهي بين مجموعة الخدم، يعطي تعليماته النهائية، بدا أكثر شرقية، أكثر انغماساً في بلده، مما أتذكر أنني رأيته من قبل.
انحنى انحناءة طويلة لوالدته، مع كلمات رسمية للوداع، وأعطاني إيماءة صغيرة جادة. ثم، دون أن يلتفت، صعد إلى الكرسي، وسُحبت الستائر، وركض الحمالون على الطريق المنحدر، تتبعهم الكلاب السوداء القافزة لمسافة قصيرة.
وقفت أنا ووالدتي معاً، بعد أن غادر الآخرون، وشاهدنا كرسيه يهتز على الطريق الضيق المرصوف. ثم التفتنا ونظرنا إلى بعضنا البعض، ابتسامات حزينة على شفاهنا، ودموع في أعيننا. هززنا رؤوسنا لبعضنا البعض. رفعت يدي نصفاً إلى قلبي، ثم أسقطتها. أعتقد أن كلينا وجدت افتقادها للغة مشتركة عذراً مرحباً به للصمت.
التفتت مدام ليانغ نحو المنزل، وأغلقت البوابات خلفنا. قدمت لها ذراعي لدعمها حتى وصلنا إلى المدخل، ثم تقدمت خطوة خلفها عندما دخلت. دون أن أتحدث، انتظرت حتى ركعت أمام المذبح، وصعد البخور في سُحب أمام التماثيل الهادئة تحت صناديقها الزجاجية. ثم رافقتها إلى شقتها. كانت حياتي كزوجة ابن صينية حقيقية قد بدأت.

4
التلال الأبدية

بينما كنت أتبع والدتي الصينية إلى شقتها، تذكرت توقعات الأصدقاء المتشائمة. كانت كلماتهم تتردد في ذاكرتي مثل الحصى التي تهتز في دلو: "لن تكون سعيدة أبداً مع زوج صيني"لاحقاً كان الأمر: "كل شيء على ما يرام في أمريكا، لكن انتظري حتى تذهبي إلى الصين". عندما استقريت بسعادة هناك، قالوا: "ليكن السم في عونها، إذا حاولت العيش مع حماتها الصينية". في شنغهاي، تنبأ الأصدقاء الأجانب: "أوه، نعم، إنها لطيفة في منزلكِ، لكن انتظري حتى تجربي العيش في منزلها".

قلت لنفسي: "هذا هو الخندق الأخير، مارجريت. تعاملي معه بوضوح. إما أنكِ على وشك تقديم حجة أخرى ضد الزواج المختلط، أو أنكِ ستسوّين المسألة إلى الأبد فيما يتعلق بحالتكِ".ذهبت أنا ووالدتي لتناول العشاء معاً، متأخرات قليلاً عن المعتاد. تناولنا طعامنا بشجاعة، وعيوننا منخفضة. نظرت عن غير قصد، ورأيت الدموع على خديها، مما أطلق دموعي أيضاً. انحنيت للأمام وأمسكت بيدها، شددنا من أزر بعضنا بجملة أو اثنتين. قلت: "لا دموع"أجابت: "كوني صبورة".

في صباح اليوم التالي، بعد أن ألبست المربية أليشيا الصغيرة، وبينما كانت الطفلة المرحة تتبعني بعينيها في الغرفة وتتحدث بكلام طفولي سعيد، حملتها وذهبت، في وقت مبكر عن المعتاد، لرؤية والدتي. وجدتها جالسة في السرير. كانت ترتدي ملابس النهار، وكانت البطانيات مطوية على جانب الجدار، مما جعلها أريكة مريحة لها. بتفكيري في تشان-كينغ، نظرت إلى صف الخزانات الصغيرة الممتدة عبر الجدار الخلفي، حتى منتصف الطريق نحو المظلة. تذكرت قوله لي عن العام الذي كان فيه صغيراً بما يكفي، ليقف تحت هذه الخزانات المنحوتة بشكل ساحر، حيث كانت والدته تخزن حليها وأدوات زينتها، وخيوط التطريز، والعطور، والأدوات اللانهائية لحياتها الهادئة. وعن الفخر الذي شعر به عندما اصطدم رأسه ذات يوم ووجد أنه يجب أن ينحني ليكون مرتاحاً.

كان ويلفريد الآن بطول مناسب للوقوف بسهولة تحت الخزانات، ولكن بطريقة غامضة، أصبحت الصورة الصغيرة له التي قدمتها لي خيالي في تلك اللحظة هي صورة تشان-كينغ الصغير البعيد، الذي كنت أعيد تشكيله دائماً في ذهني، بينما كنت أتجول في المنزل حيث عاش شبابه السعيد.

في هذا الصباح، وضعت أليشيا على السرير بجانب مدام ليانغ. انحنت عليها وجعلت وجهها الوردي يبتسم. كنت سعيدة جداً عندما كانت مدام ليانغ تهتم بـ أليشيا بشكل غير معتاد، على الرغم من أن إحساسي بالعدل كان دائماً يذكرني أن والدتي الاسكتلندية ربما كانت ستهتم أكثر بالأولاد. لكن أليشيا كانت الابنة الأولى في جيلين من عائلة زوجي، وعلى الرغم من أن الأبناء كانوا ذوي قيمة لا تقدر للعشيرة، إلا أنها كانت محبوبة ومحاطة بالعناية اللطيفة. بدا لي في بعض الأحيان أن أفراد الأسرة كانوا أكثر حباً لها من جميع الأولاد معاً، بما في ذلك كيا-سونغ الصغير لمدام سبرينغ تايم، الذي كان يملأ الجناح الأيسر من المجمع بصرخات الفرح، وهو يلعب بلعبته الخشبية غير المستقرة. تذكرت مع التسلية الفكرة الغريبة التي تقول إن البنات غير مرحب بهن دائماً في العائلات الصينية.

بينما كانت مدام ليانغ تربت على الطفلة، وتحدثت معها بإغراء، سألتها عما تريدني أن أفعله. أشارت إلى صندوق من الصور المجسمة على طاولة الزينة، الذي أحضرته لها. كانت الصور تشكل قصة كاملة، ولكنها أصبحت مشوشة جداً. بما أنني أستطيع قراءة العناوين الأجنبية، هل يمكنني ترتيب الصور بالترتيب الصحيح؟ السرعة والسهولة التي أنجزت بها هذه المهمة أكسبتني موافقتها الفورية.

كان هذا مجرد واحد من الأشياء الصغيرة العديدة التي فعلتها لها بعد ذلك. في وضعي الجديد، كنت أقضي ساعات طويلة من اليوم مع والدتي. كنت أسير معها في الحديقة عندما يكون الطقس جميلاً. أجلس معها وأخيط، وأمرر الإبر كما كنت أفعل مع والدتي، وحتى أنني ساعدتها في صنع تلك الأحذية الصغيرة الرائعة، التي كانت تصنعها بعناية لتناسب قدميها. في أحد الأيام، أخبرتها كم كنت مندهشة عندما علمت لأول مرة من تشان-كينغ، أن الزوجات الصينيات يصنعن أحذية

العائلة. ولكن كم كان من السهل أن أفهم، عندما رأيت الأحذية المطرزة الرقيقة التي كان يشير إليها، أن صناعة الأحذية كانت بالفعل حرفة أنثوية.

كانت هي ومدام تشاو تفخران بصنع أكثر الأحذية ترفاً لأنفسهن. كانت أحذية مدام تشاو أصغر، حيث بالكاد يصل طولها إلى بوصتين ونصف، بينما كانت أحذية والدتي ضعف ذلك الطول ومختلفة في الشكل. اكتشفت السبب وراء ذلك؛ كانت مدام تشاو تتمسك بشدة بالأسلوب القديم، لكن والدتي كانت قد أرخت لفافاتها تدريجياً وغيرت ترتيبها، مواكبة للتغيير الذي تبع إلغاء العادة القديمة. أصبحت مهتمة بعمق بعادة ربط الأقدام.

في شنغهاي، كانت جميع تلميذات مدرستي و(مع بعض الاستثناءات البارزة) نساء عالمي الاجتماعي يملكن أقداماً طبيعية، وكانت الغالبية ترتدي أحذية أمريكية أو أحذية أوكسفورد أو أحذية إنجليزية. على الرغم من أنني كنت أرى الأقدام المربوطة بشكل متكرر في الأماكن العامة، إلا أنها بدت بعيدة جداً. ولكن الآن، باستثناء الفتيات اللواتي يبلغن الثانية عشرة وما دون، واللواتي استفدن من النظام الجديد، كانت جميع النساء اللواتي أعيش بينهن يملكن أقداماً مربوطة. قد يكون من الجدير بالذكر، عندما يتذكر المرء كيف أن أمريكا، مع عدد كبير من سكانها غير النظيفين، تمزح على حساب الصينيين بغض النظر عن رتبتهم أو مكانتهم، أنه وفقاً للنظافة الدقيقة للطبقة العليا الصينية، كانت الأقدام المربوطة يُعتنى بها بشكل رائع. وكانت الضمادات البيضاء الضيقة المنسوجة خصيصاً يتم تغييرها كل يومين أو ثلاثة. بينما كنت أشاهد النساء اللواتي يرتدين الأحذية الرقيقة في منزل والدتي، أدركت أنني لم أكن أقدّر أبداً من قبل، أثناء قراءة أدب بلدي المتبنى، مدى ملاءمة مقارنة سير المرأة ذات الأقدام المربوطة بأناقة الخيزران الذي يتمايل في النسيم. لم أكن أتوقع أبداً، السحر المرتبط بالومضات البراقة للتطريز، تحت تنورة مزركشة متعددة الطيات. أصبحت أقدامي ذات المقاس الأربعيني تبدو كبيرة بشكل مقلق، شعرت بالخجل منها. في أحد الأيام، بينما كنت جالسة مع والدتي في كراسي مريحة، مع طاولة شاي من الخشب الأسود بيننا، وضعت قدمي بجانب قدميها وقلت بتنهدة: "آه، تبدو سيئة جداً". لوحت بيدها مستنكرة. قالت بأدب وصراحة: "لا تهتمي، قد لا تبدو جيدة، لكنها بالتأكيد تمشي بشكل أفضل".

بالطبع كنت سعيدة لأن أليشيا الصغيرة تنتمي إلى الصين الشابة، ولن تشتري زنابق ذهبية بدلو من الدموع، كما قرأت كثيراً أن كل امرأة ذات أقدام مربوطة يجب أن تفعل. لكنني قررت الآن أن الدلو يجب أن يكون قد امتلأ في سنوات الطفولة. لأن النساء اللواتي حولي لم يكن يعانين من أي ألم، فقط خدر عرضي، يتم تخفيفه بالتدليك النشط من الركبة إلى الكاحل تحت أيدي الخادمة. كنت مندهشة من السهولة والطاقة التي كن يتحركن بها، فقط يتوازنن بخطوات صغيرة للأمام والخلف عند التوقف، إلا إذا كان لديهن ذراع خادمة، أو عصا للدعم.

كنت أعتبر والدتنا متفوقة بشكل لا نهائي في أناقة وكرامة مشيتها. كانت مدام سبرينغ تايم، التي وسعت قدميها قليلاً بناءً على طلب زوجها، تتحرك ببطء وبشكل غير أنيق، وهو ما يميز الجيل الأصغر. كانت مدام تشانغ تتحرك بثقل وصعوبة. ومدام تشاو تسرع بخطوات سريعة ومتمايلة. في بعض الأحيان، كانت حتى تجري سباقات مع ألفريد، ابننا الثاني المرح، الذي كان يبلغ عامين ونصف. كانت تمسك بيده، ثم تنحني للأمام وتسحبه على طول القاعة، بينما كانا يضحكان بسعادة. بين الحين والآخر، كنت أطوي يدي، أوازن على كعبي وأحاول تقليد "مشية الصفصاف"، مما كان يثير إعجاب والدتي ومدام تشاو.

استمرت حياتي على ذلك النظام في منزل والدتي الصينية بعد مغادرة زوجي. لم يكن والده قد عاد لزيارته نصف السنوية، وكان الابن الثاني قد غادر مرة أخرى. حتى الابن الثالث الهادئ، الذي كان يشبه والدته تماماً، والذي كان يجلب لي الورود من الحديقة كل يوم، كان قد أبحر إلى ميناء الجزيرة، ليشغل مكانه في أعمال العائلة. كنا تحت حكم أمومي رحيم في المجمع الدافئ بين التلال البنية، التي كانت تتحول إلى اللون الأخضر مع قدوم الربيع.

كانت مدام ليانغ كريمة ولطيفة بشكل لا يخطئ. لم أسمعها تتحدث بحدة إلا في بعض الأحيان مع الخدم الذين تسبب إهمالهم في حدوث شيء خاطئ، مما أعاق التقدم السلس للحياة الأسرية اليومية. كنت أراقبها باهتمام وهي تدير شؤون المنزل من عرش سريرها الكبير. نادراً ما كانت تعطي أوامرها مباشرة، ولكنها كانت تستدعي قريباً أو خادماً كبيراً، يتلقى

الأوامر وينقلها إلى من كانت موجهة لهم. أعطى هذا الشيء أوامرها طابعاً جازماً وأهمية ملكية. كان الخدم يقدمون لها الولاء الكامل.
كانت تفخر كثيراً باصطحابي عبر الهيكل المعقد، حيث عاشت أجيال من عائلة ليانغ وماتت. امتدت من المنزل الرئيسي سلسلة من المنازل الصغيرة المشابهة، كل منها يحتوي على فناء خاص به، وقاعة رئيسية تحتوي على المذبح العائلي، وغرف خاصة تفتح على الجانبين. امتدت سلاسل مماثلة من "منازل داخل منزل"شرقاً وغرباً، بزوايا قائمة مع هذه السلسلة المركزية. أظهرت لي والدتي الغرف التي كانت تشغلها كعروس، مع الغرفة التي ولد فيها تشان-كينغ، عندما كانت مدام ليانغ الكبرى تدير الأمور بيد حازمة ولكن لطيفة. شعرت بتأثر عميق بكل هذا، وأصبحت جزءاً من العائلة أكثر من أي وقت مضى.
ارتكبت العديد من الأخطاء الصغيرة، كما أعلم، في محاولتي لممارسة التسامح والاجتهاد واللباقة التي تجسدتها تلك المجموعة العائلية، لكن والدتي، على عكس العديد من النساء الصينيات الحساسات وسريعات الانفعال من طبقتها، كانت صبورة بشكل كبير. لم تطلب مني أبداً أي شيء تراه غير مناسب لي، وأظهرت تمييزاً حكيماً في جميع المهام الصغيرة التي كلفتني بها. رافقتها أحياناً إلى المعبد، أو إلى قبور الأجداد، ولكن فقط كمتفرجة. تسامحها الديني لم يتطلب أي تنازل. أرادت أن تريني مكان دفن الأجداد والأجداد الأكبر. كانت تعلم أنني مهتمة ومليئة بالاحترام. كانت مهمة مدام سبرينغ تايم هي الاعتناء بالمذبح العائلي والمواظبة على الصلوات اليومية أمام الضريح المقدس.
كانت هذه الزوجة الشابة نموذجاً للمرأة الصينية التقليدية في كل شيء، مدربة ولكن غير متعلمة، منضبطة ولكن غير مكسورة، مما جعلني أجدها مصدراً دائماً للاهتمام. كانت خجولة وصامتة بطبيعتها، ولكن بعد فترة، تحدثنا قليلاً، وفي أحد الأيام أظهرت لي صناديق زفافها المصنوعة من اللاكير الأبيض مع زخارف حمراء وذهبية، المليئة حتى الأعلى بملابس زفافها المطوية بشكل رائع، وملابس طفلها الأول، التي كان والداها قد جهزها كجزء من جهاز زفافها.
أعجبتني هذه العادة الأخيرة لمقاطعة تشان-كينغ الأصلية. كانت نموذجاً للكثير من البساطة التي وجدتها بين شعب بلدي المتبنى. تلك الملابس الصغيرة الملونة الزاهية، من الحرير المحشو والبروكاد والكتان التي كانت تمثل رموزاً للأمل، ونذور خير للسعادة والزواج المثمر.
معتادة كما كنت على المثالية الكاذبة المتعلقة بالحقائق المهمة في الحياة، الزواج والولادة. وقد كانت مواقفهم الصريحة تجاه الأساسيات، وقبولهم غير المشروط لحقائق الوجود، مفاجأة سارة لي.
أعجبتني أيضاً المفارقة الغريبة بين نظرتهم البسيطة للأشياء الأساسية والشكليات والصرامة في آدابهم الشخصية. إنها طريقة عرق قديم ومثقف دائماً، توقف منذ زمن طويل عن البناء في الأساس وأصبح مشغولاً بزخارف الحياة. مخطط حياتهم اليومية مبني على الاعتقاد الراسخ بأن النمط الطبيعي للوجود البشري هو الحياة الأسرية. لهذا الغرض، يجب الحفاظ عليها بأي ثمن. لا يمكن أن تتطور الحياة في حالة من التنافر. إذا كانت المجاملات تستحق أي شيء على الإطلاق، فهي تستحق الحفاظ عليها باستمرار وبأي تضحية شخصية.
كانت الحياة خلف البوابة المقوسة ممتعة ومليئة بالمهام الصغيرة اليومية، لدرجة أنني لم أفكر كثيراً في الخروج. لم يكن في القرية مسرح. في الأيام الاحتفالية، كانت الفرق المسرحية المتنقلة تقدم عروضاً على منصات مؤقتة، في المعابد أو المنازل الخاصة. لكننا كنا نذهب أحياناً إلى المسرح في المدينة الكبيرة القريبة، وعندما يكون لدينا ضيوف يقيمون معنا لعدة أيام، كانوا يرافقوننا أحياناً. أعتقد أننا كنا مشهداً مثيراً للإعجاب، محمولين بخطى سريعة، في نصف دزينة من الكراسي المحمولة، على الطريق غير المنتظم عند الغسق، يسبقنا ويتبعنا الخدم الذين يحملون الفوانيس.
عاش الأطفال حياة محمية وسعيدة، مع خدم وأقارب صغار لتسليتهم داخل المنزل أو خارجه، حسبما يسمح الطقس. كانت جدتهم المتسامحة تزودهم بوفرة من النقود الجيبية، على شكل حفنات من النقود النحاسية بدلاً من سلاسل النقود التي كانت تكفي الجيل السابق. من الباعة المتجولين، كانوا يشترون أقواساً وسهاماً من الخيزران المطلي بألوان زاهية، طيوراً تصفر وتماثيل مسرحية من الفخار الملون، ألعاباً مطاطية منفوخة ومجموعة لا تنتهي من كعكات دقيق الأرز، حلوى بذور

السمسم، حلوى الفول السوداني وحلوى الدخن. في الأيام الاحتفالية، كان الاختيار أوسع من أي وقت مضى، مع باقات رقيقة من الصوف السكري (شراب مغزول ناعم) وألعاب حلوى هشة، مصنوعة من الحلوى المنصهرة بفن نفخ الزجاج. على شكل فوانيس، طيور وأسماك، مثبتة على عصي رفيعة. وفي مواسم معينة، كانت هناك أسماك ضخمة مصنوعة من إطارات الخيزران، مغطاة بالورق ومرسومة بشكل واقعي، كانت تسبح في النسيم بأناقة كسولة، أو طائرات ورقية مصممة بشكل مشابه لتمثل طيوراً وتنانين تطير لأعلى في رحلة ساحرة.

كان هناك مستوطنة أجنبية محدودة في نفس المدينة، وجاءت عدة نساء أمريكيات وبريطانيات لزيارتي. كان بعضهن يأتين بصراحة فضولية لمعرفة كيف نجوت من "الاختبار العائلي". كما عبرت إحداهن، على الرغم من أنهن كن لطيفات جداً.

كانت والدتي مهتمة جداً بهؤلاء الزوار، وكثير منهن قمت بتقديمهن لها، إن كن يتحدثن الصينية. عندما كن يغادرن، كانت غالباً ما تسأل عن جنسيتهن، مهنة أزواجهن، عدد أطفالهن. بالنسبة لتلك الأسئلة، اعترفت معظمهن بطفل واحد أو في بعض الأحيان، طفلين. لكنني لن أنسى أبداً زيارة امرأة جميلة بشكل لافت بشعر كستنائي والمحادثة التي تلت مغادرتها. رداً على السؤال المعتاد، قلت: لا أطفال على الإطلاق، لكن لديها خمسة كلاب وقد اشترت للتو في شنغهاي كلبين آخرين، سيصلان على الباخرة القادمة".

قالت والدتي مرعوبة: "لا أطفال على الإطلاق، وخمسة؟ سبعة كلاب؟"

ثم انفجرنا في الضحك. لكنها سرعان ما أصبحت جادة.

"النساء الأجنبيات لا يهتممن بالأطفال".

احتججت: "أنا أهتم. أحب أن يكون لدي الكثير من الأطفال".

قالت والدتي بابتسامة: "أنتِ زوجة صينية".

ولحسن الحظ، كانت الزائرة التالية امرأة أمريكية ذات وجه جميل، وأم فخورة بستة أطفال، أحضرت اثنين منهم معها. وهكذا تم إنقاذ سمعة وطننا.

في هذه الأيام، فكرت كثيراً في الزواج المختلط كمشكلة. عندما كنت في شنغهاي، قال طالب عائد أقام معنا لعدة أيام لـ تشان-كينغ بعد ذلك:

"كدتُ أن أتزوج فتاة أمريكية عندما كنت في الكلية. أتمنى الآن لو كنت شجاعاً بما يكفي لفعل ذلك".

في ذلك الوقت، شعرت بالأسف الشديد للفتاة المجهولة التي فاتتها كل السعادة التي شهدتها. والآن كنت أكثر يقيناً من أي وقت مضى، من الجودة الحقيقية لسعادتي. لم يكن هناك شك على الإطلاق في ذلك. لكنني أدركت الطرق العديدة التي كان يمكن أن يفسد فيها كل شيء. لو كان زوجي أقل مراعاة، أقل إخلاصاً وولاءً، لو كانت عائلته أقل لطفاً وانفتاحاً، لو كنت أنا نفسي متقلبة وعنيدة أو غير قادرة على التكيف مع المحيط، لكان بإمكاني أن أغوص في أعماق البؤس كل يوم.

قررت أنه لا يمكن وضع قواعد حول الزواج المختلط. كانت مشكلة فردية، كما يجب أن تكون جميع الزيجات. لذا، عندما كتبت لي فتاة شابة من الوطن تطلب النصيحة، معتقدة أنها تحب زميلاً صينياً، واختتمت رسالتها بقولها: "أنتِ، السيدة لـ يانغ، يجب أن تحسمي المسألة لي". أجبت، كما لم أكن لأفعل قبل عام: "هذا أمر أنتما الاثنان فقط مؤهلان لحسمه. لا أحد يمكنه أن ينصحكِ بأمان، لأن الخطأ في أي اتجاه قد يؤدي إلى تعاسة مدى الحياة. لكنني قد أجرؤ على اقتراح أن الحب القوي بما يكفي لتحمل اختبار الزواج المختلط لا يبحث عن النصيحة. إنه واثق من نفسه".

في منزل حيث كان فقط ابني الأكبر وأنا نتحدث الإنجليزية، كانت صراعاتي اللغوية خفيفة بشكل غير متوقع. ترك لي تشان-كينغ قائمة بالعبارات اليومية، وأصبحت أذني حادة جداً في محاولاتي المستمرة لفهم الكلام السريع الذي يدور حولي طوال اليوم. في وقت قصير، كنت أفهم عملياً كل شيء يُقال لي.

خلال المحادثات الطويلة التي كانت تجري بيني وبين والدتي في هدوء المساء، تحدثنا كثيراً عن تشان-كينغ وعرضت لي آثاراً ثمينة من طفولته: سترة صغيرة من المخمل الأحمر الداكن، قبعة بالية، لعبة فضية وكتاب المدرسة نفسه الذي بدأ فيه دراسة

اللغة الإنجليزية. أحببتها جميعاً، وأحببتها هي أكثر لحرصها على أشيائه، وشعرت بسعادة كبيرة عندما أعطتني صورة لـ تشان-كينغ في سن أصغر من أي صورة كان يمتلكها. كانت مهتمة جداً بجميع صورنا أيضاً. كانت مستمتعة جداً بـ تشان-كينغ وهو يرتدي ملابس المسرحيات الجامعية. وعندما أخرجت صوراً لي في جميع الأعمار، ولأهلي وأجدادي، كانت تتبع أوجه التشابه العائلي بإدراك لا يخطئ. كنا أحياناً ننظر إلى المجلات التي كان يرسلها لنا تشان-كينغ من العاصمة أو نتحدث عن عادات أجنبية مختلفة. وسرعان ما وجدت أنه من السهل جداً التحدث معها، وبمساعدتها تعلمت أيضاً قراءة وكتابة الأحرف الصينية البسيطة، لأن والداً متحرراً كان قد منحها مزايا تعليمية استمتعت بها قلة من الفتيات في جيلها.

عندما تشير عقارب ساعتها الصغيرة من الأبنوس إلى الثانية عشرة، كانت تلمس يدي بلطف وتقول: "حان وقت نومكِ".

لكنني كنت أجيب: "لكن يجب أن أكتب أولاً إلى تشان-كينغ".

كانت تهز إصبعها لي بحذر لطيف. وتجيب: "الوقت متأخر جداً. يجب أن تنامي".

كنت أتمسك بهذه النقطة بإصرار. "لكن، والدتي، إذا لم أكتب إلى تشان-كينغ، لن أستطيع النوم".

كانت توافق بعد ذلك، وفي اليوم التالي كنت أحمل الصفحات لأريها إياها، لأن رسائلي إلى تشان-كينغ وردوده الطويلة كانت مصدراً كبيراً للمتعة لها. كنت أترجم هذه الرسائل لها بأمانة، قدر ما تسمح به لغتي الصينية المحدودة، وفي رسائلي كنت دائماً أضيف رسائل تمليها هي علي.

كنت أتعلم الطريقة الرومانية لكتابة الصينية، والتي تم تطويرها وتوحيدها بشكل ملحوظ إلى لهجة لدينا. كانت والدتي مهتمة جداً عندما أريتها كيف تكتب كلمات مألوفة بأحرف أجنبية، وكان تشان-كينغ دائماً، يرد على هذه الرسائل بنفس الطريقة، على الرغم من أنه كان يتبادل المراسلات مع والدته بالأحرف الصينية، بانتظام.

كانت تقول غالباً لأصدقائها بفرح واضح: "هؤلاء الأولاد يكتبون رسائل طويلة لبعضهم البعض، خمسة عشر وعشرين صفحة في المرة الواحدة".

بالإضافة إلى هذه الرفقة الشخصية مع والدتي، التي كنت أستمتع بها كثيراً، لم يكن هناك أي قيود مفروضة عليّ بأي شكل من الأشكال. كنت حرة في الخروج بمفردي، وزيارة الأصدقاء والتسوق في المدينة.

كان إحساسي باللباقة، يدفعني دائماً إلى تقديم نفسي عند باب شقة والدتي قبل مغادرتي المنزل، لشرح طبيعة مهمتي وطلب موافقتها. بتقبلها لهذه الشكليات الصغيرة كمجاملة، لم تعترض أبداً. كانت معتادة على هذا الاحترام، ولم أجد سبباً للامتناع عنه. جميع الدعوات التي تلقيتها من معارفي، سواء أجانب أو صينيين، كنت أرفضها أو أقبلها كما تنصحني، لأنني كنت أعتمد على معرفتها الدقيقة بالناس والعادات الاجتماعية.

مرتين خلال تلك الأشهر من غياب تشان-كينغ، اقترب الموت. مرة كان صبياً شاباً ذكياً، الابن الوحيد، الذي كانت تُعقد عليه آمال كبيرة، ومرة أخرى، الفتاة الشابة التي رافقت والدتي إلى شنغهاي. لم تكن خادمة بالمعنى العادي، ولكنها كانت يتيمة، قريبة بعيدة لوالدتي. كانت مدام ليانغ دائماً لطيفة وكريمة معها، وكلما عادت من الرحلة إلى شنغهاي، والتي كانت حدثاً كبيراً في حياتها الهادئة، تم تقديم عرض زواج واعد لها، وتم إرسالها إلى منزلها الجديد مع جهاز زفاف كامل.

عند سماعها أخيراً بوجودنا في المنزل العائلي، ارتدت فستان زفافها الأخضر الفاتح وجاءت لرؤيتي. لمسني فرحها الواضح باللقاء. بحماس مشرق، أخبرتني عن زوجها، وحماتها اللطيفة. بفخر وصفت ابنها الصغير. بعد ساعة مرحة مع الأطفال، غادرت، ووعدت بالعودة مرة أخرى. لكنني لم أرها بعد ذلك. أخذها الموت فجأة من سعادتها.

بدأت أفكر في الموت على أنه شيء ليس بعيداً جداً بعد كل شيء. عدة مرات، قامت مجموعة منا، أطفال وأقارب وأصدقاء وخدم، برحلات قصيرة بالكراسي إلى التلال. منظر آلاف القبور، التي كانت أحجارها تبيض جوانب التلال لأميال في بعض الأماكن، أثار إعجابي أكثر فأكثر بقصر الحياة النسبي.

منتشرة على العديد من هذه التلال توجد آثار حجرية غريبة تسمى "أقواس الأرامل"، كل منها يقف بمفرده عادة بجانب

الطريق، لإحياء ذكرى زوجة مخلصة قتلت نفسها عند وفاة زوجها في الأيام القديمة. كانت الأرملة التي ترغب في تقديم هذه التضحية، بعد فترة قصيرة من الزمن، تعلن نيتها في الانتحار. كان أفراد عائلتها يقيمون منصة عالية لها ويدعون الأقارب والأصدقاء لحضور المراسم. في الساعة المحددة، كانت السيدة تشنق نفسها، ويتم لاحقاً إقامة قوس حجري عالي كتذكار لتفانيها وبطولتها.

في العائلة الصينية، تحظى الأرملة التي لا تتزوج مرة أخرى بالتكريم والتقدير الذي لا يقل عن تقدير الحماة. مع تقدم العمر، تكتسب سلطة إضافية. لا يُحظر عليها الزواج مرة أخرى، ولكن شروط الزواج الثاني تكون صعبة بما يكفي، لإحباط أي شخص إلا الأكثر جرأة. يبقى أطفال زوجها الأول في منزل عائلته، ولا ترحب عائلة زوجها الثاني بها بحرارة كبيرة.

يفضل المرء بطبيعة الحال، الإرادة الحرة في هذه الأمور. ومع ذلك، كان لدي تعاطف كامل مع فكرة "ترمل الحياة"، حتى قبل أن أحلم بأنها ستكون نصيبي. على الرغم من أن منظر "أقواس الأرامل"كان مؤلماً لي في البداية، إلا أن قناعاتي جعلت النظرة الصينية لها تبدو غير غير طبيعية. رغم أنني كنت أعلم أن العادة قد تم حظرها بمرسوم إمبراطوري قبل حوالي قرنين من الزمان.

حتى في الأيام التي كنت أنا وتشان-كينغ نعتقد فيها أن حبنا سيمنحنا بطريقة ما الخلود الأرضي، كانت الفكرة قوية في داخلي. أن الموت، بالنسبة لأولئك الذين يحبون حقاً، لا يمكنه إلا أن يطفئ الشعلة للحظة، لإعادة إشعالها بلهب أصفى في الأبدية. في ذلك الوقت، كنت أحتفظ بهذه الفكرة في خلفية ذهني. الآن، أعيش بها.

لهذا السبب أيضاً، وجدت دائماً الموقف الصيني تجاه الموت مريحاً جداً. إنهم لا يتخلون أبداً عن أحبائهم. ذكرى يوم الوفاة هي مناسبة احتفالية مثل يوم الميلاد. موكب الحياة يسير دون انقطاع، من الميلاد إلى الموت وما بعده، والعودة إلى الميلاد مرة أخرى. تلامس الأجيال أيدياً غامضة بلا نهاية، حتى يشعر الفرد بأنه جزء من موكب لا نهائي يمر للحظة في ضوء أبيض ثم يخرج مرة أخرى. ويشعر بأنه يلامس أولئك الذين جاؤوا قبله وأولئك الذين يأتون بعده، واحد من سلسلة طويلة، مرتبطين بشكل لا رجعة فيه.

مع كل أخلاقيات التضحية الشخصية واهتمامهم بفكرة الأبدية، لا يحتقر الصينيون العالم المادي ولا يملكون ازدراءً زاهداً له، ويرغبون بصدق ويبحثون عن طول العمر. من بين الرموز والشخصيات المختلفة المستخدمة للتعبير عن التمنيات الطيبة، مثل الصحة، الشرف والثروة، تأتي رموز "طول العمر"في المقدمة. يتم نقشها في الخواتم، الأساور، زينة الشعر، وتُخاط في ملابس الزفاف وعلى معاطف وقبعات الأطفال الصغيرة. كنت دائماً أشعر بهذا الاحترام الهائل للحياة في جميع عاداتهم اليومية. تحضير ملابس الطفل عندما تغادر العروس منزل والدها، تربية وتقوية العشيرة بالعديد من الأطفال، الاحترام المقدس لقبور الأجداد الذين يدين لهم الأحياء بنعمة الوجود.

في عدة مناسبات، رافقت والدتي في زياراتها لقبور الأجداد. أتذكر آخر مرة، قبل أيام قليلة من عودة تشان-كينغ، مشيت معها، ممسكة بيدها، بينما كانت تمسك بعصاها ذات الرأس الذهبي باليد الأخرى. كانت ترتدي زياً خفيفاً، تنورة سوداء مطوية وسترة بنفسجية وحذاء جلدياً أسود وجميلاً. كان الخدم يتبعونها بسلال القرابين.

وقفنا على مسافة محترمة في صمت، بينما كانت تؤدي طقوسها. كانت الأوراق موضوعة في كل مكان، مثقلة بحجارة صغيرة. ركعت وضمّت يديها، وكررت صلواتها بتقوى بصوت خافت. ثم، بمساعدة خادم، أحرقت الرموز الورقية للطعام والشراب للأموات. تم تفجير المفرقعات النارية لتنقية الهواء من الأرواح الشريرة، وانتهت المراسم.

عندما عدنا إلى القرية، كان الناس ينادونها من أبواب منازلهم، وكانت ترد دائماً بلطف وصداقة. في الأطراف، توقفنا للراحة وزيارة منزل أحد الأقارب. عندما غادرنا، ذهب العديد من الأقارب والأصدقاء معنا لمسافة قصيرة، وهم يصرخون مراراً: "وداعاً"و"عودي مرة أخرى، عودي قريباً". رأيت أشعة الشمس على جبل النمر وشممت ملوحة البحر. بينما كنا نمر حول الصخور الكبيرة التي أخفتهم عن أنظارنا، وصلت إلينا ألحانهم المتناغمة: "عودي مرة أخرى، عودي قريباً". كانت هذه آخر مرة أسمعها كما كنت في ذلك الوقت، ولم أكن حتى أحلم بذلك.

منذ شهر كنت أتوقع وصول تشان-كينغ. كانت رسائله دائماً رسائل حب، مع فقرات إضافية تقول إنه كان ينجح في

عمله وسيكون لديه الكثير ليخبرني به عندما يعود إلى المنزل. أخيراً، أخبرتنا رسالة بأن نتوقعه على متن سفينة معينة، في يوم معين. لكن الجداول الزمنية كانت لا تزال في حالة فوضى بسبب الحرب. تأخرت تلك السفينة، وأبحر تشان-كينغ إلى ميناء آخر، تبع ذلك المزيد من التأخيرات. المزيد من رسائل الشرح. المزيد من التأخيرات مرة أخرى. أصبحت أنا ووالدتي مريضتين بالقلب بسبب الأمل المؤجل. أخيراً، في أحد الأيام، استيقظت من غفوة طويلة، وسمعت ضجة في المنزل الهادئ، صوت جرس، واندفاع خطوات مبطنة في القاعة الخارجية. اختلطت أصوات سعيدة في التحية عند باب شقة والدتي. ألقيت ردائي، حملت أليشيا تحت ذراعي وركضت عبر الغرفة، وفتحت الباب على مصراعيه بينما كان تشان-كينغ يرفع يده ليطرق على الباب. رأيته بشكل خافت في الضوء المتذبذب. كان يبتسم، وخلفه كانت والدته، تبتسم أيضاً. تحدث كل منا باسم الآخر بجدية، محاولين محو ذاكرة كل تلك الأشهر من الغياب بنظرة طويلة. ثم رأى الطفل. قال بالصينية: "لي-سيا، ألف قطعة ذهبية من ذهبي. ابتسمت أليشيا ومدت ذراعيها نحوه. قالت والدتي بمفاجأة سعيدة: "إنها تعرفه!"وقفنا نحن الثلاثة معاً للحظة، بصمت، مجتمعين حول الطفلة. شعرت بأنني أصبحت أكثر انغماساً في العشيرة، امرأة صينية، مكرسة من جديد، بقلبي وروحي، لشعبي المتبنى.

في وقت لاحق، شرح لي تشان-كينغ سبب عودته إلى المنزل. كانت خدمته القانونية للحكومة قد اكتملت، وحصل أخيراً على التعيين المتوقع. كنا سنعود إلى أمريكا، حيث سيكون في الخدمة القنصلية الصينية. بعد فترة في هذا العمل، بدا المستقبل المشرق في المجال الدبلوماسي مضموناً. كان هذا يعني ترك الصين الحبيبة، حيث كنت قد تأصلت بقوة. لكننا اتفقنا على أن المنفى سيكون لبضع سنوات فقط وأننا سنعود بالتأكيد إلى أرض الميعاد، لنستمتع بفترة "طول العمر مع الشرف".

الآن، تم كسر وجودنا الهادئ إلى حد ما. تقريباً على الفور، بدأنا في الاستعدادات لحياتنا الجديدة في أمريكا. كان تشان-كينغ يتطلع إلى التغيير باهتمام شديد، وكأنه يعود إلى الوطن. كان رد فعلي الفوري هو الفرح، الذي تبعه بسرعة، الحزن على التخلي عن الأشياء التي أحببتها وأصبحت مألوفة الآن. أردت أن أبدو مبتهجة، كواجب تجاه من حولي. لم أرد أن أبدو مبتهجة أكثر من اللازم، حتى لا تعتقد والدتي أنني سعيدة بالرحيل.

في هذه الفترة، أخيراً، التقيتُ بوالدي الصيني. في يوم جميل من أوائل الخريف، نزلنا أنا وتشان-كينغ إلى المدينة، وعُدنا في منتصف الظهيرة. بينما كنا ننزل الكراسي أمام المدخل، أعلن الحارس لـ تشان-كينغ عن وصول والده. غمرني شعور سريع بالقلق. مرة أخرى، كانت الصدفة قد حددت زيّي: كنت أرتدي، ليس الزي الصيني المحافظ الذي ارتديته عند لقائي بأمي، بل فستاناً أمريكياً مزيناً بالحرير الصيفي الأزرق والأبيض، وقبعة بيضاء من الدانتيل مع زخارف من المخمل الأسود وبراعم الورد الوردية، وحذاءً أبيض من الجلد. كان تشان-كينغ يرتدي بنطلوناً أبيض من الفانيلا وقبعة بنما. قام بتسليم القبعة والعصا إلى الخادم. عندما دخلنا معاً إلى الغرفة الرئيسية، نهض شخص من بجانب أمي لاستقبالنا. رأيت رجلاً مسناً متوسط الطول، بوجهٍ صارم وحليق، وشعر رمادي. كان يرتدي رداءً طويلاً من الحرير الأزرق الداكن، مع سترة سوداء خارجية والقبعة المستديرة المعتادة من الساتان الأسود. رحب زوجي به أولاً ثم قدمني له. بينما كنت أقف مترددة، كان هناك انحناء مهذب من الرأس الرمادي، وذابت الصرامة في تعبير وجهه، لتحل محلها ابتسامة رائعة وجذابة، وبشكل مفاجئ، كما فعلت أمي، مدّ والدي الصيني يده. شعرت أنه كان يفهمني في ضوء كل ما أخبرته به أمي، وأن مصافحته الحارة وكلماته الترحيبية اللطيفة كانت تأكيداً لحكمها. ثم، بإيماءة مهذبة، أشار لي لأجلس على الكرسي الذي كان يشغله بجانب أمي، بينما جلس هو وتشان-كينغ معاً قبالتنا. ابتسمت أمي في عيني بأكثر تعابيرها سعادة. شعرت أن خلفية تشان-كينغ قد اكتملت. منذ وقت طويل، كنت أتصورها قاسية ومليئة بالتهديد، لكنني الآن تأكدت أنها كانت لطيفة تماماً وحامية. تساءلت وابتسمت عند تذكر خوفي الأخير من هذا الاختبار.

كان والدي مسروراً جداً لاكتشاف أن أحفاده قادرون على التحدث بطلاقة بلغته الأم. كان يجمعهم حوله لساعة كاملة، يطرح عليهم أسئلة لاختبار معرفتهم العملية، أو يحكي لهم قصصاً لتسليتهم. كما أسعدته أليشيا أيضاً. عند سماعها لأوامر صينية بسيطة، كانت تقبض يديها أو تطويها وتنحني بعمق. كانت أمي فخورة جداً بحفيدتها الصغيرة وكثيراً ما كانت

تقول: "إنها تماماً كما كان تشان-كينغ في عمرها". وكان زوجها دائماً ما يوافق بابتسامة متسامحة. كانت هناك بين هذين الشخصين، رغم كونهما من النوع المحافظ، دليل على المودة والاحترام المتبادل، وعلى الرفقة الحقيقية التي أثرت فيّ بعمق. كنت سعيدة لأن والدي سيكون مع أمي عندما نغادر أنا وتشان-كينغ وأطفالنا الثلاثة من المنزل الذي كنا وفقاً للعادات الصينية القديمة، ننتمي إليه جميعاً.

تمت مناقشة مسألة ترك واحد أو أكثر من أطفالنا هناك لفترة من الوقت في أحد الأيام اللاحقة.

قال والدي لـ تشان-كينغ: "في الظروف العادية، كنت ستذهب وحدك، كما يفعل أخوك، تاركاً عائلتك بأكملها معنا. على الأقل، كنت ستسمح لطفل واحد بالبقاء مكانك. لكن بالطبع، نحن وأمك نفهم أن هذه ليست ظروفاً عادية. زوجتك أمريكية. لقد كانت مراعية لوجهة نظرنا في العديد من الأمور، أكثر مما توقعنا، وفي هذه المسألة لا ننسى أن نأخذ في الاعتبار وجهة نظرها، والتي لا شك أنها وجهة نظرك أيضاً. نحن نفهم أنه وفقاً للرأي الأمريكي، ينتمي الأطفال دائماً إلى والديهم. لا يمكننا بالطبع أن ننكر حقك في هذه الطريقة في العيش. لكننا نريد منك أن تشعر بأنه إذا كان بإمكانك ترك حتى طفل واحد معنا، فسنكون سعداء جداً. أنت تفهم الحماية والرعاية التي سيحظى بها".

ساد صمت للحظة. كان قلبي ممتلئاً بالعاطفة، وحتى لو كان من حقي التحدث، لما استطعت ذلك. تخيلت في ذهني شعور أمي بالوحدة عند فقدانها العديد من أطفالها. حاولت عبثاً أن أتخيل منزلنا في أمريكا مع غياب وجه صغير واحد. راقبت زوجي، ولاحظت آثار الصراع البسيطة على وجهه، الذي بدا غير مبالٍ للنظرة العابرة. أخيراً، تحدث.

بدأ بجدية: "أبي، أمي، نحن نقدر حقاً لطفكم وكرمكم الكبير. ستفهمون أننا، كما تفهمون حقاً وضعنا، نعلم أن أطفالنا هنا معكم سيحصلون على العديد من المزايا التي ربما لا نستطيع نحن تقديمها لهم. ولكن أي واحد يمكننا تركه ليستمتع بتلك المزايا؟ ليس ويلفريد، لأنه ابننا البكر، الذي نعتمد عليه كثيراً. وألفريد، من بيننا جميعاً، يبدو الأقل ملاءمة لمناخ الجنوب. لقد تركه حر الصيف شاحباً بعض الشيء وخاملاً. هو يحتاج إلى رحلة بحرية. أما أليشيا، فهي الطفلة الصغيرة، وابنتنا الوحيدة. لا تعتقدوا أننا غير ممتنين لكل ما فعلتموه. لكنني أخشى أننا لن نعرف كيف نجعل منزلنا بدون أطفالنا".

بعد كل شيء، يبدو أن الأمر لم يكن غير متوقع. هزوا رؤوسهم قليلاً بحزن ثم ابتسموا.

قال والدي: "حسناً، لكن يجب أن تعدونا بهذا: في فترات متقطعة، عندما يسمح عملك بذلك، ستعودون جميعكم وتقضون عاماً معنا مرة أخرى. لا تدعوا الأطفال ينسوننا ولا لغتهم الصينية. في أربع سنوات على الأكثر، عودوا جميعاً معاً".

قطعنا ذلك الوعد، وكررنا أنا وأمي العبارة لبعضنا البعض: "في أربع سنوات أخرى، نعود جميعاً معاً".

كانت عيوننا مليئة بالدموع.

في تلك الليلة، قلت لزوجي: "كان يجب أن نترك واحداً منهم".

لكن تشان-كينغ كان مفكراً أكثر وضوحاً في ذلك الوقت، وكان يعرف حقيقة هذا الموقف أفضل مني. سألني بلهجة دالة: "أي واحد؟"مما جعلني أرى جوهر فراغ احتجاجي.

في يوم الأحد قبل أن تبحر سفينتنا، ودعنا أنا وتشان-كينغ الصين. برفقة والدينا والعديد من الأقارب الآخرين. مشينا إلى قمة تل مرتفع جداً، حيث كان هناك معبد قديم يطل على منظر رائع لمسافات شاسعة، متكئاً برضا بين الصخور تحت أشعة الشمس الرمادية. كان معبداً يجمع بين الديانات الثلاث، مع تماثيل حجرية ضخمة لـ كونفوشيوس وبوذا ولاو تسي مجتمعة في ساحته الخارجية. معاً، تسلقنا أنا وتشان-كينغ قمة الصخر المدرج. نظرت حولي، إلى القرية الصغيرة الفخمة والملونة، النابضة بالحياة على جانب التل، وإلى البقع الخصبة المتناثرة وسط الجبال القاحلة حيث تبني النمور أوكارها. التلال الأبدية تجتاح السماء المنخفضة الملبدة بالغيوم، تتدحرج بعيداً عنا، صامتة ومليئة بالظلال. غمرني حب عارم للتربة تحت قدمي، وتعلقي بأرض الصين. تمنيت أن أنزل على ركبتي وأقبل ذلك الغبار الحبيب. قلت له: "أوه، تشان-كينغ، هذا هو البيت. أتمنى ألا نغادر، حتى ليوم واحد".

قال لي بالصينية: "سنعود قريباً، وسنعيش هنا عندما نكبر".

في ذلك المساء، جلسنا معاً في الحديقة الهادئة. من شقة أمي، جاء صوت ابن أخيها الصغير وهو يردد دروس الغد. سمعنا ضحكات خافتة لخادمتين صغيرتين تتدافعان في الردهة المجاورة. على طول الممر الخارجي، مرت عربة محمولة بخطى منتظمة، مع صرير الخيزران الذي يرافق خطى حامليها المنتعلين بالصنادل.
من مسافات مختلفة، جاء دوي الجرس النحاسي، يرتجف في الهدوء، والصوت المتقطع لعصي الخيزران الرفيعة التي تهتز معاً في صندوق أسطواني، والإيقاع المنتظم لطبل صغير، بينما يعلن الباعة المتجولون عن بضائعهم. فوق التلال، التي أصبحت أرجوانية في الشفق، تمايل القمر ببطء في السماء البنفسجية. جاءت نسمات غريبة من البخور تحوم حولنا. نسيم البحر حرك أغصان شجرة عين التنين القريبة، حيث كانت كرات الفاكهة الناضجة تتصادم برفق مع بعضها البعض مثل الفوانيس الصغيرة المتمايلة. جلسنا في صمت لفترات طويلة، ممسكين بأيدي بعضنا البعض.
من ذلك الصمت، تحدث زوجي بصوت ناعم، بكلمات كنت أتوق لسماعها منذ زمن طويل: "الغياب، مارغريت، يعلمنا أشياء كثيرة. مرة أظهر لك قلبك. هذه المرة علمني أن أؤمن معك بخلود حب مثل حبنا. جسدياً، قد نفترق أحياناً، لكن عقلياً وروحياً، أنا وأنتِ واحد إلى الأبد".
ارتفع القمر أعلى، ذهبياً وكاملاً، تماماً مثل حبنا.
بعد أيام قليلة، أبحرنا إلى أمريكا. يمكن سرد الباقي في كلمات قليلة، لأنه في النهاية، لا توجد كلمات تستطيع أن تصفها بشكل كاف. بعد أسبوع من وصولنا إلى أمريكا، أُصيب تشان-كينغ بالإنفلونزا. لعدة سنوات، كان يعاني من مرض بطيء، لكنه قاوم بشجاعة وتمتع بفترات متكررة من الصحة الجيدة، جعلتنا ننسى لبعض الوقت ذلك التهديد المبكر والشرير. لكن سنوات النضال تلك كانت كلها في كفة الميزان ضده، عندما جاءت الساعة الحاسمة. بعد ستة أيام، توفي. بهدوء، وبقسوة لا ترحم، أطبقت عليه يد الموت. كنا نخشى نهاية مفاجئة، هذا صحيح، لكننا كنا لا نزال غير مصدقين مثل هذه الكارثة. قدمنا لبعضنا البعض ما استطعنا من طمأنينة: كانت وداعاتنا الأخيرة مجرد تجديد للإيمان، وشدة أكبر في الإمساك بأيدينا للسير في الظلام. قال لي مراراً: "من بين كل العالم، أنتِ حبي. أكثر من أي شخص آخر، فهمتِني، كنتِ دائماً بجانبي، كنتِ زوجتي". وبينما كان يتحدث، لم تعد ذراعي تحتضن حبيبي الحي، بل فقط الجسد الذي كان يحمل روحه التي لن تعود أبداً.
هكذا، وبالدلائل المرئية، انتهى تاريخي. لكنه بدأ من جديد بالنسبة لي، ليس كما أردت، ولا كما تمنيت، ولكن على مستوى أستطيع تحمله. لأنني أملك أطفالي وذكرياتي ومنزلي في الصين، الذي ينتظرني بالشفاء اللطيف للمشاهد والأصوات والأماكن. وتعلمت أن في الحب، وفقط في الحب، يمكننا أن ننتصر روحياً على هزيمة الجسد.